تلخيص
تفسير سورة الحُجُرَات

من كتاب

الأمثل في تفسير كتاب الله المُنْزَل
الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ
ج ١٦ ص ٥٠٤ – ٥٧٨

الشّيخ محمّد أشكناني

سورة الحُجُرَات

سورة الحُجُرَات مدنيّة ، وعدد آياتها ثماني عشرة آية .

محتوى السّورة :

هذه السّورة تحمل مسائل مهمّة تتعلّق بشخص النّبيّ صلّى الله عليه وآله والمجتمع الإسلاميّ ، وحيث إنّ كثيرًا من المسائل الأخلاقيّة ذُكِرَتْ في هذه السّورة فيمكن أن نسمّي هذه السّورة بـ "سورة الأخلاق والآداب" .

تقسيم السّورة :

يمكن تقسيم مضامين السّورة إلى الأقسام التالية :

القسم الأوّل :

آداب التّعامل مع النّبي صلّى الله عليه وآله .

القسم الثّاني :

الأخلاق الاجتماعيّة المهمّة الّتي تحفظ المحبّة والصّفاء والأمن والاتّحاد في المجتمع الإسلاميّ .

القسم الثّالث :

الأوامر الإرشاديّة المتعلّقة بكيفيّة مواجهة الاختلافات والنّزاعات والقتال بين المسلمين .

القسم الرّابع :

معيار قيمة الإنسان عند الله عزّ وجلّ وأهمّيّة التّقوى .

القسم الخامس :

الإيمان ليس بالقول فقط ، بل لا بدّ من ظهور آثاره في أعمال الإنسان والجهاد بالمال والنّفس ، إضافة إلى الاعتقاد القلبيّ .

القسم السّادس :

الإيمان والإسلام هما هديّة إلهيّة للمؤمنين ، وبدلاً من أن يمنّوا بالإسلام والإيمان ينبغي أن يشكروا الله عزّ وجلّ على هذه الهديّة .

القسم السّابع :

علم الله تعالى واطّلاعه على جميع أسرار الوجود الخفيّة وأعمال الإنسان ، والقسم السّابع بمثابة الضّامن لتنفيذ جميع الأقسام الواردة في هذه السّورة .

سبب تسمية السّورة بـ "الحُجُرَات" :

تسمية هذه السّورة بسورة "الحُجُرَات" لورود هذه الكلمة في الآية الرّابعة .

فضل سورة الحُجُرَات :

عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله : "من قرأ سورة الحُجُرَات أُعْطِيَ من الأجر عشر حسنات بعدد من أطاع الله ومن عصاه" [1] .

كل هذه الحسنات الّتي هي بعدد المطيعين والعاصين إنّما تكون في صورة ما لو جعلنا مسيرنا وفقًا لمنهج المطيعين ، وابتعدنا عن منهج العاصين .

عن الإمام الصّادق عليه السّلام : "من قرأ سورة الحُجُرَات في كلّ ليلة أو في كل يوم كان من زوّار محمد صلّى الله عليه وآله" [2] .

إنّ نيل زيارة النّبيّ صلّى الله عليه وآله فرع العمل على وفق الآداب المذكورة في الحضور عنده صلّى الله عليه وآله .

سورة الحُجُرات الآيات ١ – ٥ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُقَدّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ كَجَهْرِ

---

[1] جامع أحاديث الشيعة ج١٥ ص١١٢ .

[2] بحار الأنوار ج ٨٩ ص ٣٠٣ ح ١ .

بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

سبب النّزول :

ذكر المفسّرون لنزول الآية الأولى شئونًا ، وذكروا لنزول الآيات الّتي بعدها شئونا أخر .

من الشّئون الّتي ذكروها لنزول الآية الأولى أنه حينما أراد النّبيّ صلّى الله عليه وآله أن يتوجّه إلى خيبر رغب في أن يخلف شخصًا معيَّنًا مكانه في المدينة وينصبه خليفة عنه ، فاقترح عمر شخصًا آخر ، وأمرت الآية الأولى أن لا تقدّموا بين يدي الله عزّ وجلّ ورسوله صلّى الله عليه وآله [1] .

وقال آخرون : كان بعض المسلمين بين الفينة والأخرى يقولون لو نزلت فينا آية لكان أفضل ، فنزلت الآية أن لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله [2] .

وقال بعضهم : إن الآية تشير إلى أعمال بعض المسلمين الّذين كانوا يؤدّون عباداتهم قبل أوانها ، فنزلت الآية لتنهاهم عن مثل هذه الأعمال [3] .

وأما في شأن الآية الثانية فقد قال المفسّرون إن طائفة من بني تميم وأشرافهم وردوا المدينة ، فلمّا دخلوا مسجد النّبيّ صلّى الله عليه وآله نادوا بأعلى أصواتهم من وراء الحجرات الّتي كانت للنّبيّ صلّى الله عليه وآله : يا محمّد ، اخْرُجْ إلينا !

---

[1] تفسير القرطبيّ ج ٩ ص ٦١٢١ .

[2] نفس المصدر السّابق .

[3] نفس المصدر السّابق .

فأزعجت هذه الصّرخات غير المؤدَّبة النّبيّ صلّى الله عليه وآله ، فخرج إليهم فقالوا له : جئناك لنفاخرَك ، فَأَجزْ شاعرنا وخطيبنا ليتحدّث عن مفاخر قبيلتنا ، فأجازهم النّبيّ صلّى الله عليه وآله ، فنهض خطيبهم وتحدّث عن فضائلهم الخياليّة كثيرًا .

فأمر النبي ثابت بن قيس [1] أن يردّ عليهم ، فنهض وخطب خطبة بليغة ، فلم يَبْقَ لخطبة أولئك من أثر .

ثم نهض شاعرهم وألقى قصيدة في مدحهم ، فنهض حسّان بن ثابت [2] فَرَدَّ عليه بقصيدة شافية كافية .

فقام رجل من أشراف تلك القبيلة واسمه الأقرع فقال : إنّ هذا الرجل – يعني محمّدا صلّى الله عليه وآله – خطيبه أبلغ من خطيبنا ، وشاعره أجدر من شاعرنا ، وصدى صوته أبعد مدى من صوتنا .

فأمر النّبيّ صلّى الله عليه وآله أن تُهْدَى لهم هدايا ليكتسب قلوبهم إليه ، فكان أن تأثّروا بمثل هذه المسائل ، فاعترفوا بنبوته .

إنّ الآيات الكريمة ناظرة إلى هذه القضيّة والأصوات من خلف الحجرات .

وهناك شأن آخر لنزول الآية ، بل هو يتعلّق بالآية الأولى وما بعدها ، وهو أنه في السّنة التّاسعة من الهجرة كانت القبائل تَفِدُ على النّبيّ صلّى الله عليه وآله للسّلام عليه أو للمعاهدة معه ، وقد عُرِفَ ذلك العام بـ "عام الوفود" ، وعند وصول ممثّلي قبيلة تميم إلى النّبيّ صلّى الله عليه وآله اقترح أن يكون القعقاع – أحد أشراف تلك القبيلة – أميرها ، واقترح عمر أن يكون الحابس بن أقرع أميرها ، فقال أبو بكر لعمر : أردت أن تخالفني . فردّ عليه عمر بأنه لم يرد مخالفته أبدًا ، فتعالى الصّياح والضّجيج بينهما ، فنزلت الآيات السّابقة ، والمعنى أنّه لا تقترحوا

---

[1] خطيب الأنصار وخطيب النّبيّ صلّى الله عليه وآله . أسد الغابة ج١ ص ٢٢٩ .

[2] شاعر النّبيّ صلّى الله عليه وآله . نفس المصدر السّابق .

على النّبيّ صلى الله عليه وآله شيئًا ، ولا تتقدّموا عليه في العمل ، ولا ترفعوا أصواتكم عند بيت النّبيّ صلّى الله عليه وآله [1] .

تفسير الآيات ١ – ٥ :

آداب الحضور عند النّبيّ صلّى الله عليه وآله :

تحتوى هذه السّورة قسمًا من المباحث الأخلاقيّة المهمّة الّتي تدعونا إلى تسمية هذه السّورة بسورة الأخلاق ، والآيات تحتوي على نحوين من التعاليم :

النحو الأول :

عدم التّقدّم على الله ورسوله صلّى الله عليه وآله ، وعدم رفع الصّوت عند رسول الله صلّى الله عليه وآله .

فتقول الآية الأولى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُقَدّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)

والمراد من عدم التّقديم بين يدي الله عزّ وجلّ ورسوله صلّى الله عليه وآله هو أن لا يُقْتَرَحَ عليهما في الأمور ، وترك العجلة أمام أمر الله ورسوله صلّى الله عليه وآله .

وبعض المفسّرين أرادوا أن يحدِّدوا مفهوم الآية فجعلوه مُنْحَصِرًا بأداء العبادات قبل وقتها ، أو التّكلّم قبل كلام رسول الله صلّى الله عليه وآله وأمثال ذلك ، إلاّ أنّه من الواضح أنّ للآية مفهومًا واسعًا يشمل أيّ تقدّم في كل خطّة ومنهج [2] .

---

[1] تفسير القرطبيّ ج ٩ ص ٦١٢١ ، ابن هشام في سيرته ص ٢٠٦ فما بعد ، صحيح البخاريّ ج ٦ ص ١٧٢ .

[2] وَرَدَ الفعل "لا تُقَدِّمُوا" على صيغة الفعل المتعدّي إلاّ أنّ المفعول محذوف هنا ، وتقديره : لا تُقَدِّمُوا أمرًا بين يدي الله ورسوله صلّى الله عليه وآله ، وقد احتمل بعضهم أنّ هذا الفعل لازم هنا ، ومفهومه لا تَتَقَدَّمُوا بين يدي الله ورسوله صلّى الله عليه وآله ، وبالرّغم من أنّ الفعلين مختلفان شكلاً إلاّ أنّ المعنى والنتيجة واحدة .

إنّ مسئوليّة انضباط السّائرين إزاء القادة وخاصّة إزاء القادة الإلهيّين تقتضي ألاّ يتقدّموا عليهم في أيّ قول وعمل ، ولا يعجل أحد عندهم .

وبالطّبع فإنّ هذا الكلام لا يعني بأنّه لا يجوز لهم أن يتشاوروا مع النّبيّ صلّى الله عليه وآله إذا كان لديهم شيء يجدر بيانه ، بل المراد منه ألاّ يعجلوا ويبادروا بالتّصميم قبل أن يوافق النّبيّ صلّى الله عليه وآله على ذلك ، حتّى أنّه لا ينبغي أن تُثَارَ أسئلة ومناقشات أكثر مما يلزم ، بل ينبغي أن يترك الأمر للقائد نفسه أن يبيّن المسائل في حينها ، ولا سيّما إذا كان القائد معصومًا ، وهو الّذي لا يغفل عن أيّ شيء ، كما أنّه لو سُئِلَ المعصوم عليه السّلام أيضًا فلا يحقّ للآخرين أن يجيبوا السّائل قبل أن يَرُدَّ عليه المعصوم عليه السّلام ، و الآية جمعت كلّ هذه المعاني في مضمونها .

والآية الثّانية تشير إلى الأمر الثّاني فتقول :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٢)

والجملة الأولى : " **لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ** " ، إشارة إلى أنّه لا ينبغي رفع الصّوت على صوت النّبيّ صلّى الله عليه وآله ، فهو بنفسه نوع من إساءة الأدب في محضره المبارك ، وهذا الأمر لا يجدر أن يقع أمام الأب والأمّ والأستاذ أيضًا لأنه مخالفٌ للاحترام والأدب .

وأما جملة : " **وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ** " ، فيمكن أن تكون تأكيدًا للمعنى المتقدِّم في الجملة الأولى ، أو أنّها إشارة إلى مطلب آخر ، وهو ترك مخاطبة النّبيّ صلّى الله عليه وآله بالنّداء "يا محمّد" ، والعدول عنه بالقول : "يا رسول الله" .

وبعض المفسّرين قالوا في الفرق بين الجملتين السّابقتين : إنّ الجملة الأولى ناظرة إلى زمان يتحادث النّاس فيه مع النّبيّ صلّى الله عليه وآله ، فلا ينبغي لأحد أن يرفع

صوته فوق صوت النّبيّ صلّى الله عليه وآله ، وأمّا الجملة الثّانية فناظرة إلى زمان يكون الرّسول صلّى الله عليه وآله فيه صامتًا وأصحابه يحدّثونه ، ففي هذه الحالة أيضًا لا ينبغي رفع الصّوت عنده صلى الله عليه وآله .

والجمع بين هذا المعنى والمعنى السّابق أنّه لا مانع منه ، كما أنّه ينسجم مع شأن نزول الآية ، ولكن ظاهر الآية هو بيان أمرين مختلفين .

ومن البديهيّ أن أمثال هذه الأعمال إن قُصِدَ بها الإساءة والإهانة لشخص النّبيّ صلّى الله عليه وآله ومقامه الكريم فذلك موجب للكفر ، وهي الصّورة الأولى ، وإلاّ فهو إيذاء له ، وفيه إثم أيضًا ، وهي الصّورة الثّانية .

وفي الصّورة الأولى تتّضح علّة الحبط وزوال الأعمال ؛ لأنّ الكفر يُحْبِطُ العمل ، ويكون سببًا في زوال ثواب العمل الصّالح .

وفي الصّورة الثّانية لا يمنع أن يكون مثل هذا العمل السيِّئ باعثًا على زوال ثواب الكثير من الأعمال .

وجاء في بحث الحبط [1] أنّه لا مانع من زوال ثواب بعض الأعمال بسبب بعض الذّنوب الخاصّة ، كما أنّ أثر بعض الذّنوب تزول بسبب الأعمال الصّالحة ، وهناك دلائل في الآيات القرآنيّة والأحاديث الشّريفة على هذا المعنى ، وهذا المعنى لم يثبت على أنّه قانون كلّيّ في جميع الحسنات والسّيّئات ، إلاّ أنّه توجد دلائل نقليّة في شأن بعض الحسنات والسّيّئات المهمّة .

وقد وَرَدَ في رواية أنّه حين نزلت الآية السّابقة قال ثابت بن قيس – خطيب النّبيّ صلّى الله عليه وآله – الّذي كان له صوت جهوريّ عالٍ : أنا الّذي رفعت صوتي فوق صوت النّبيّ صلّى الله عليه وآله ، فحبطت أعمالي ، وأنا من أهل النّار .

---

[1] جاء بحث الحبط في ذيل الآية ٢١٧ من سورة البقرة .

فبلغ ذلك سمع النّبيّ صلّى الله عليه وآله فقال : "هو من أهل الجنّة" [1] .

وقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله إنّه من أهل الجنّة لأنّ ثابت بن قيس حينما فعل ذلك للمؤمنين أو أمام المخالفين كان ذلك أداء لوظيفة شرعيّة .

وفي الآية الأخرى مزيد تأكيد على الثّواب الّذي أعدّه الله عزّ وجلّ لأولئك الّذين يمتثلون أمر الله عزّ وجلّ ويراعون الأدب عند رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فتقول :

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) [2] .

كلمة "يَغُضُّونَ" مشتقّة من "غَضَّ" ، ومعناها تقليل النّظر أو إخفات الصّوت ، ويقابل هذه الكلمة الإمعان بالنّظر والجهر بالصّوت .

وكلمة "امْتَحَنَ" مشتقّة من الامتحان ، والأصل في استعمالها إذابة الذّهب وتطهيره من غير الخالص ، كما أنّها تُسْتَعْمَلُ في بسط الجلد المعدّ للدّبغ ، ثم اسْتُعْمِلَتْ بعدئذٍ في مطلق الاختبار كما في الآية الكريمة ، ونتيجة ذلك خلوص القلب وبسطه لقبول التّقوى .

وممّا يسترعي الانتباه أنّ الآية السّابقة ورد فيها التّعبير بـ "النّبيّ" صلّى الله عليه وآله ، وهذه الآية ورد فيها التّعبير عنه بـ "رسول الله" صلّى الله عليه وآله ، وكلتا الآيتين تشير إلى أن النّبيّ صلّى الله عليه وآله ليس عنده شيء من نفسه ، بل هو رسول الله ونبيّه ، فإساءة الأدب إليه صلّى الله عليه وآله إساءة الأدب إلى الله عزّ وجلّ ، ورعاية الأدب مع النّبيّ صلّى الله عليه وآله رعاية لله عزّ وجلّ .

---

[1] مجمع البيان ج ٩ ص ١٣٠ ، وقد وَرَدَ هذا الحديث بتفاوت في بعض الكلمات عند المفسّرين ولا سيّما البخاريّ في صحيحه وغيره .

[2] "اللاّم" في كلمة "التّقوى" هي لام الغاية وليست لام العلّة ، والمعنى هو أن الله يجعل قلوب أولئك مهيَّأةً للقبول والتّقوى ؛ لأنّ القلب إذا لم يخلص فلا يكون محلاً للتّقوى .

وَنُكِّرَتْ كلمة "مغفرة" للتّعظيم والأهمّيّة ، أي أنّ الله يجعل نصيبهم المغفرة الكبرى والتّامّة ، وبعد تطهيرهم من الذّنب يرزقهم الأجر العظيم ؛ لأنّه لا بدّ من التّطهير من الذّنب أوّلاً ، ثمّ الانتفاع من الأجر العظيم الّذي يعطيه الله عزّ وجلّ .

وأما الآية الأخرى فإنّها تشير إلى جهل أولئك الّذين يجعلون أمر الله عزّ وجلّ وراء ظهورهم ، فتقول :

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (٤)

فأيّ عقل يدفع الإنسان إلى أن ينادي برفيع صوته أمام أعظم سفير إلهيّ ، فلا يلتفت إلى آداب النّداء ، كما فعلت قبيلة بني تميم حيث نادت النّبيّ صلّى الله عليه وآله بصوت مزعج : "يا محمّد يا محمّد اخْرُجْ إلينا !" ، وهو مركز المحبّة والعطف الإلهيّ ؟!

وكلّما ترقّى عقل الإنسان زِيدَ في أدبه ، فيعرف القيم الأخلاقيّة بصورة أحسن ، ومن هنا فإنّ إساءة الأدب دليل على عدم العقل ، فرعاية الأدب يكون من عمل الإنسان لأنه إنسان .

وجملة " أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ " : "الأَكْثَرُ" في لغة العرب يُطْلَقُ أحيانا بمعنى الجميع ، وإنّما اسْتُعْمِلَ هذا اللفظ رعايةً للاحتياط في الأدب حتّى لو أنّ واحدًا اسْتُثْنِيَ من الشّمول لا يضيع حقّه عند التّعبير بالأكثر ، فكأنّ الله عزّ وجلّ يريد أن يقول : إنّي أنا الله الّذي أحطت بكلّ شيءٍ علمًا ، وعند الكلام على مثل هذه الأمور أراعي الأدب في ذلك ، فَعَلاَمَ لا تراعون الأدب في كلامكم ؟!

وأيضًا لأنه يوجد فيهم أناس يعقلون حقًّا ، ولعادة الناس وعدم التفاتهم في رفع الصّوت يريد القرآن الكريم أن يحذّرهم بهذا الأسلوب لكي لا ينسوا الأدب ، وأن يستعملوا عقولهم وأفكارهم عند الكلام .

"الحُجُرَاتُ" : جمع " حُجْرَة " ، والحُجُرَات إشارة إلى البيوت [1] المتعدّدة لأزواج النّبيّ صلّى الله عليه وآله المجاورة للمسجد .

وأصل الكلمة مأخوذ من "الحَجْر" – على وزن "الأَجْر" – : أي المنع ؛ لأنّ الحُجْرَة تمنع الآخرين من الدّخول في حريم حياة الإنسان .

والتعبير بـ "وَرَاء" هنا كناية عن الخارج من أيّ جهة كان ؛ لأنّ أبواب الحجرات كانت تنفتح على المسجد أحيانًا ، فيقف الجهلة عندها فينادون : "يا محمّد اخْرُجْ إلينا !" ، فنهاهم القرآن الكريم .

ويضيف القرآن الكريم إكمالاً للمعنى في نهاية الآية قائلاً :

" وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ " .

صحيح أنّ العجلة قد تجعل الإنسان أحيانًا يبلغ قصده بسرعة ، إلاّ أنّ الصّبر في مثل هذا المقام والتّأنّي مدعاة إلى المغفرة والأجر العظيم .

وحيث إنّ بعضهم قد ارتكبوا جهلاً هذا الخطأ ، وحاسبوا أنفسهم بعد نزول الآية ، فإنّ القرآن الكريم يضيف قائلاً إنّهم تشملهم الرّحمة عند التوبة : " وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " .

بحوث في الآيات ١ – ٥ :

البحث الأوّل : الأدب أغلى القيم :

اهتمّ الإسلام اهتمامًا كبيرًا بمسألة رعاية الأدب والتّعامل مع الآخرين مقرونًا بالاحترام والأدب سواء مع الفرد أم مع الجماعة ، ونشير إلى بعض الأحاديث الشّريفة :

---

[1] بيوت : جمع بيت ، وهذا اللّفظ يُطْلَقُ على الغرفة الواحدة أو مجموع الغرف في مكان واحد لعائلة معيّنة ، وهو مشتقّ من المبيت ليلاً .

عن الإمام عليّ عليه السّلام : "الآداب حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ" [1] .

وعنه عليه السّلام : "الأدب يغني عن الحَسَب" [2] .

وعن الإمام الصّادق عليه السّلام : "خَمْسٌ من لم تكن فيه لم يكن كثير فيه مستمتع" . قيل : وما هنّ يا ابن رسول الله ؟ قال عليه السّلام : "الدّين والعقل والحياء وحسن الخلق وحسن الأدب" [3] .

وعنه عليه السّلام : "لا يطمعنّ ذو الكبر في الثّناء الحسن ، ولا الخَبّ في كثرة الصّديق ، ولا السّيّئ الأدب في الشّرف" [4] .

حينما نقرأ تاريخ حياة القادة في الإسلام نلاحظ أنّهم يراعون الأخلاق والآداب حتّى مع الأناس البسطاء ، وأساسًا فإن الدّين عبارة عن مجموعة من الآداب ، الأدب مع الله عزّ وجلّ ، ومع الرّسول صلّى الله عليه وآله ، ومع الأئمّة المعصومين عليهم السلام ، ومع الأستاذ والمعلِّم ، ومع الأب والأمّ ، ومع العالم والمفكّر ، وغيرهم .

والتّدقيق في آيات القرآن الكريم يكشف عن أنّ الله عزّ وجلّ بما له من مقام العظمة حينما يتكلّم مع عباده يُراعِي الآداب بتمامها ، لذلك لا بدّ أن يراعي الناس وظيفتهم أمام الله عزّ وجلّ ويؤدّون تكاليفهم تجاهه سبحانه .

وفي بعض الأحاديث الشريفة وَرَدَ أنّه حينما نزلت الآيات الأولى من سورة "المؤمنون" ، وأمرهم بسلسلة من الآداب الإسلامية ، ومنها مسألة الخشوع في الصّلاة ، فكان النّبيّ صلّى الله عليه وآله ينظر أحيانًا إلى السّماء عند الصّلاة ثم ينظر

---

[1] نهج البلاغة الحكمة رقم ٥ .

[2] بحار الأنوار ج ٧٥ ص ٦٨ .

[3] بحار الأنوار ج ٧٥ ص ٦٧ .

[4] بحار الأنوار ج ٧٥ ص ٦٧ ، الخبّ : المخادع والغشّاش .

إلى الأرض مُطْرِقًا برأسه لا يرفعه [1] .

وصرّح القرآن الكريم عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله في آياته بالإعراض عن اللّغو عنده ، وعـــدم رفع الصّوت والصّخب ، فكلّ ذلك موجب للحبط في الأعمـــال واضمحلال الثّواب .

ولا تكفي رعاية هذه الآداب المذكورة عند النّبيّ صلّى الله عليه وآله ، بل هناك آداب أخرى ينبغي مراعاتها في حضوره صلّى الله عليه وآله .

يقول تعالى في سورة النور :

لاَّ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً (٦٣)

وقد فسّرها بعض المفسّرين بأنّه عندما تنادون النّبيّ صلّى الله عليه وآله فنـــادوه بأدب واحترام يليقان به ، لا كما ينادي بعضكم بعضًا .

والقرآن الكريم عَدَّ أولئك الّذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله صلّى الله عليه وآله ويراعون الأدب بأنهم مُطَهَّرُو القلوب ، وهم مُهَيَّؤون للتّقوى ، وجـــديرون بالمغفرة والأجر العظيم ، وَعَدَّ الّذين ينادونه من وراء الحجرات ويـــسيئون الأدب عنده صلّى الله عليه وآله بأنّ أكثرهم لا يعقلون .

وبعض المفسرين توسّعوا في الآيات محلّ البحث ، وجعلوا لها مراحل أدنى بحيث تشمل المفكّرين والعلماء والقادة من المسلمين ، فوظيفة المسلمين أن يراعوا الآداب بين أيديهم ، وهذا من باب تنقيح المناط والملاك والعلة .

وهذه المسألة أكثر وضوحًا في شأن الأئمّة أولي العصمة عليهم الـــسّلام ، وفي بعض الرّوايات عن أهل البيت عليهم السّلام أنه حينما دخل أحد الأصحاب على الإمام عليه السّلام بادره الإمام عليه السّلام دون مقدّمة : "أما تعلم أنّه لا ينبغـــي للجُنُب أن يدخل بيوت الأنبياء" [2] .

---

[1] تفسير مجمع البيان ، تفسير الفخر الرّازيّ ، ذيل الآية ٢ من سورة "المؤمنون" .

[2] بحار الأنوار ج ٢٧ ص ٢٥٥ .

وورد التّعبير في رواية أخرى أنّ "بيوت الأنبيـــاء وأولاد الأنبيـــاء لا يدخلـــها الجُنُب" .

إن مسألة رعاية الآداب أمام الكبير والصغير تشمل قسمًا كبيرًا مـــن التّعـــاليم الإسلاميّة .

ونختم بحثنا بحديث عن الإمام عليّ بن الحسين السّجّاد عليه السّلام في "رســـالة الحقوق" حيث قال في "مورد رعاية الأدب أمام الأستاذ" :

"وحقّ سائسك بالعلم التّعظيم له ، والتّوقير لمجلسه ، وحسن الاستماع إليـــه ، والإقبال عليه ، وأن لا ترفع عليه صوتك ، ولا تجيب أحدًا يسأله عن شيء حتّـــى يكون هو الذي يجيب ، ولا تحدِّث في مجلسه أحدًا ، ولا تغتاب عنده أحدًا ، وأن تدفع عنه إذا ذُكِرَ عندك بسوء ، وأن تستر عيوبه ، وتظهر مناقبه ، ولا تجالس لـــه عدوًّا ، ولا تعادي له وليًّا ، فإذا فعلت ذلك شهدت لك ملائكة الله بأنّك قصدته وتعلّمت علمه لله جلّ اسمه لا للنّاس" [1] .

البحث الثّاني : رفع الصّوت عند قبر النّبيّ صلّى الله عليه وآله :

قال بعض العلماء والمفسّرين إنّ الآيات محلّ البحث كما أنّها تمنع رفع الصّوت عند النّبيّ صلّى الله عليه وآله حال حياته فهي كذلك شاملة للمنع بعد وفاته صلّى الله عليه وآله [2] .

وإذا كان المراد من قولهم شمول العبارة فظاهر الآية يخصّ زمان حياته صلّى الله عليه وآله لأنّها تقول : "**لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**" ، وذلك في حالة مـــا يكون النّبيّ صلّى الله عليه وآله له حياة جسمانيّة وهو يتكلم مع أحد ، فلا يجـــوز رفع الصّوت فوق صوته صلّى الله عليه وآله ، وبتنقيح المناط والملاك والعلة يشمل

---

[1] المحجّة البيضاء للفيض الكاشانيّ ج ٣ ص ٤٥٠ ، باب آداب الصّحبة والمعاشرة .

[2] روح المعاني ج ٢٦ ص ١٢٥ .

ذلك ، وأهل العرف يلغون الخصوصيّة ، فلا يبعد التعميم المذكور ؛ لأن الهدف هو رعاية الأدب واحترام النّبيّ صلّى الله عليه وآله ، فعلى هذا إذا كان رفع الصّوت عند قبره صلّى الله عليه وآله نوعًا من هتك الحرمة فهو غير جائز ، إلاّ أن يكون أذانَ الصّلاة أو تلاوةَ القرآن أو إلقاءَ خطبةٍ وأمثال ذلك ، فإنّ هذه الأمور جائزة في حياة النّبيّ وبعد وفاته صلّى الله عليه وآله .

وفي أصول الكافي عن الإمام الباقر عليه السّلام في شأن ما جرى للإمام الحسن عليه السّلام بعد وفاته وممانعة إحدى زوجات النّبيّ صلّى الله عليه وآله عن دفنه في جواره صلّى الله عليه وآله جاء فيه أنه حينما ارتفعت الأصوات استدلّ الإمام الحسين عليه السّلام بالآية الشريفة : " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ** " ، وَوَرَدَ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله : "إنّ الله حَرَّمَ من المؤمنين أمواتًا ما حَرَّمَ منهم أحياء" [1] .

وهذا الحديث شاهد على عموم مفهوم الآية الكريمة بأنّه يمنع رفع الصّوت عند النّبيّ صلّى الله عليه وآله حال حياته ، وهي شاملة للمنع بعد وفاته صلّى الله عليه وآله .

البحث الثّالث : الانضباط الإسلاميّ في كلّ شيء وفي كلّ مكان :

إنّ مسألة الإدارة لا تتمّ بدون رعاية الانضباط ، وإذا أُرِيدَ للنّاس العمل تحت إدارة وقيادة – حسب رغبتهم – فإنّ اتّساق الأعمال سينعدم عندئذٍ وإن كان المديرون والقادة جديرين ، وكثير من الأحداث والنّواقص ستحدث من هذا الطريق ، فكم من هزيمةٍ أصابت جيشًا قويًّا أو نقصٍ حَدَثَ في أمر يهمّ جماعة كان سببه عدم رعاية الانضباط .

ولقد ذاق المسلمون أيضًا مرارة مخالفة هذه التّعاليم مرارًا في عهد النّبيّ صلّى الله

---

[1] أصول الكافي ج ٥ ص ٨٠ .

عليه وآلـــه أو بعده ، ومن أوضح الأمور هزيمة المسلمين في معركة أحـــد لعـــدم الانضباط من قِبَلِ جماعة قليلة من المقاتلين .

والقرآن الكريم يثير هذه المسألة المهمّة في عبارة موجزة وبأســـلوب جـــامع إذ يقول : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُقَدّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ " .

ومفهوم الآية واسع إلى درجة أنّها تشمل أيّ نوع من أنواع التّقدّم والتّـــأخّر والكلام والتّصرفات الخارجة عن تعليمات القيادة .

ونلاحظ في حياة النّبيّ صلّى الله عليه وآله موارد كثيرة يتقدّم فيها بعض الأفراد على أمره أو يتخلّفون ، فيكونون موضع الملامة والتّوبيخ الشّديد ، ومن ذلك مـــا يلي :

المورد الأوّل :

حينما تحرّك النّبيّ صلّى الله عليه وآله لفتح مكّة في السّنة الثّامنة من الهجـــرة في شهر رمضان ، وكان معه جماعة كثيرة من الفرسان والمشاة ، ولما بلغ النّبيّ صـــلّى الله عليـــه وآله منزل كراع الغميم أمر بإناء ماء ، فتناول منه صلّى الله عليه وآلـــه وأفطـــر ثم أفطر من كان معه ، ولكن جماعة منهم لم يوافقوا على الإفطار وبقـــوا صائمين ، فسمّاهم النّبيّ صلّى الله عليه وآله بالعصاة [1] .

المورد الثّاني :

ما حدث في حجّة الوداع في السّنة العاشرة من الهجرة حيث أمر النّبيّ صلّى الله عليه وآله أن ينادي المنادي : من لم يَسُقْ منكم هديًا فَلْيُحِل وليجعلها عمرة ، ومن ساق منكم هديًا فَلْيَقُمْ على إحرامه ثمّ يؤدّي مناسك الحجّ ، وأنّ من جاء بالهدي – أي حجّه حجّ إفراد – فعليه أن يبقى على إحرامه .

ثم قال صلّى الله عليه وآله : لولا أنّي سُقْتُ الهدي لأحللت وجعلتها عمرة ،

---

[1] وسائل الشّيعة ج ٧ ص ١٢٥ ، باب من يصحّ منه الصوم .

فمن لم يَسُقْ هديًا فَلْيُحِل .

وجماعة أبوا وقالوا : كيف يمكننا أن نُحِلَّ وما يزال النّبيّ صلّى الله عليه وآله مُحْرِمًا ؟ أليس قبيحًا أن نمضي للحجّ بعد أداء العمرة ويسيل منّا ماء الغسل – أي من الجنابة – ؟!

فساء النّبيّ صلّى الله عليه وآله ما قالوا ووبّخهم ولامهم [1] .

المورد الثّالث :

التّخلّف عن جيش أسامة عندما أراد النّبيّ صلّى الله عليه وآله أن يلتحق بالرّفيق الأعلى حيث أمر صلّى الله عليه وآله المسلمين أن يُنْفِذُوا جيش أسامة بن زيد ويتحرّكوا إلى حرب الروم ، وأمر صلّى الله عليه وآله المهاجرين والأنصار أن يتحرّكوا مع هذا الجيش ، والنّبيّ صلّى الله عليه وآله أراد أن لا تقع عند رحلته خلاف في أمر الخلافة ، حتّى أنّه لعن المتخلّفين عن جيش أسامة ، ومع ذلك تخلّف جماعة بحجّة أنّهم لا يستطيعون أن يتركوا النّبيّ صلّى الله عليه وآله في مثل هذه الظروف [2] .

المورد الرّابع :

قصّة "القلم والدّواة" الّتي وقعت في السّاعات الأخيرة من حياة النّبيّ صلّى الله عليه وآله ، وهي :

لمّا حضر رسول الله وفي البيت رجال ، فيهم عمر بن الخطاب ، فقال النّبيّ : هلم اكتب لكم كتابًا لا تضلّون بعده . فقال عمر : إنّ رسول الله قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله . فاختلف أهل البيت فاختصموا ، فمنهم من يقول : قَرِّبُوا يكتب لكم رسول الله كتابًا لن تضلّوا بعده . ومنهم من

---

[1] بحار الأنوار ج ٢١ ص ٣٨٦ .

[2] ذُكِرَتْ هذه القصّة في كتب التّاريخ ، وهي من الحوادث المهمّة في تاريخ الإسلام ، يراجع كتاب المراجعات المراجعة ٩٠ .

يقول ما قال عمر ، فلمّا أكثروا اللّغو والاختلاف عند رسول الله قال رسول الله : قوموا [1] .

وهذا الحديث نقله البخاريّ في صحيحه باختلاف يسير [2] .

الخلاصة :

إنّ رعاية الانضباط تحتاج إلى روح التّسليم المطلق ، وقبول القيادة الإلهيّة في جميع شئون الحياة ، والإيمان القويّ بمقام القائد .

سورة الحجرات الآيات ٦ – ٨ :

يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)

سبب النّزول :

قال بعض المفسِّرين كالطّبرسيّ في مجمع البيان إنّ هناك قولين في شأن نزول الآية الأولى من الآيات أعلاه ، ولكن بعضهم اكتفى بقول واحد منهما كالقرطبيّ ونور الثقلين .

والقول الأول في شأن نزول الآية محل البحث الّذي ذكره أغلب المفسِّرين أنّ الآية الكريمة : " يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ " نزلت في الوليد بن عقبة ، وذلك أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله أرسله لجمع الزّكاة من قبيلة بني المصطلق ، فلمّا علم بنو المصطلق أنّ مبعوث الرّسول صلّى الله عليه وآله قادم إليهم سرّوا كثيرًا

---

[1] صحيح مسلم ج ٣ كتاب الوصية ح ٢٢ .

[2] صحيح البخاريّ ج ٦ باب مرض النّبيّ ص ١١ .

وهرعوا لاستقباله ، وكانت للوليد بن عقبة خصومة شديدة معهم في زمان الجاهليّة فتصوّر أنّهم يريدون قتله .

فرجـــع إلى النّبيّ صلّى الله عليه وآله ، ومن دون أن يتحقّق في الأمر قال : يا رسول الله ، إنّهم امتنعوا عن دفع الزّكاة .

فغضب النّبيّ صلّى الله عليه وآله لذلك ، وصمّم على أن يقاتلهم ، فنزلت الآية السّابقة [1] .

وأضاف بعض المفسِّرين أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله حين أخبره الوليد بن عقبة بارتداد قبيلة بني المصطلق أمر خالدًا بن الوليد أن يمضي نحوها ، وأن لا يقوم بعمل حتّى يعرف الحق ، فمضى خالد ليلاً ، وصار قريبا من قبيلة بني المصطلق ، وبعث عيـــونه ليستقصوا الخبر ، فعادوا إليه صلّى الله عليه وآله وأخبروه بأنّهم مسلمون حيث سمعوا منهم صوت الأذان والصّلاة ، فغدا خالد بن الوليد عليهم في الصّباح بنفسه ، فوجد ما قاله أصحابه صدقًا ، فعاد إلى النّبيّ صلّى الله عليه وآله ، وأخبره بما رأى ، فنزلت الآية السّابقة [2] .

وذكر بعض المفسِّرين قولاً آخر في شأن نزول الآية ، وهو أنّ الآية نزلـــت في مارية القبطيّة زوج النّبيّ وأمّ إبراهيم ، لأنّه قيل للنّبيّ صلّى الله عليه وآله إنّ لها ابن عمّ يُدْعَى جريجًا ، تتردّد إليه أحيانًا ، فأرسل صلّى الله عليه وآله خَلْفَ عليّ عليه السّلام ، وقال له : يا أخي ، خذ السّيف ، فإن وجدته عندها فاضرب عنقه .

فأخذ أمير المؤمنين عليه السّلام السّيف ثم قال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، أكون في أمرك إذا أرسلتني كالسّكّة المحماة أمضي لما أمرتني أم الشّاهد يرى مـــا لا يرى الغائب .

فقال صلّى الله عليه وآله : بل الشّاهد يرى ما لا يرى الغائب .

---

[1] مجمع البيان ج ٩ ص ١٣٢ .

[2] تفسير القرطبيّ ج ٩ ص ٦١٣١ .

قال علي عليه السّلام : فأقبلت متوشّحا بالسّيف ، فوجدته عندها ، فاخترطت السّيف ، فلمّا عرف أنّي أريده أتى نخلة فرقى إليها ثمّ رمى بنفسه على قفاه وشغر برجليه ، فإذا هو أجبّ أمسح ليس له ما للرّجال ، فرجعت فأخبرت النّبيّ صلّى الله عليه وآله فقال : الحمد لله الّذي يصرف عنّا السّوء أهل البيت [1] .

تفسير الآيات ٦ – ٨ :

لا تكترث بأخبار الفاسقين :

كان الكلام في الآيات السّابقة على ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون أمام قائدهم ونبيّهم صلّى الله عليه وآله ، وقد ورد في الآيات المتقدّمة أمران مهمّان :

الأمر الأوّل :

أن لا يقدّموا بين يدي النّبيّ صلّى الله عليه وآله .

الأمر الثّاني :

مراعاة الأدب عند الكلام مع النّبيّ صلّى الله عليه وآله ، وعدم رفع الصّوت فوق صوته .

وأمّا الآيات محلّ البحث فهي تبيّن الوظائف الأخرى على هذه الأمّة إزاء نبيّها صلّى الله عليه وآله ، وتقول بأنّه ينبغي الاستقصاء عند نقل الخبر إلى النّبيّ صلّى الله عليه وآله ، فلو أنّ فاسقًا جاءكم بنبأ فتثبّتوا وتحقّقوا من خبره ، ولا تكرهوا النّبيّ صلّى الله عليه وآله على قبول خبره حتّى تعرفوا صدقه ، فتقول الآيات : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا " ، وتبيّن السّبب في ذلك : " أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ " .

ولو أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله أخذ بقول الوليد بن عقبة ، وعدّ قبيلة بني المصطلق مرتدّين وقاتلهم لكانت فاجعة ومصيبة عظمي .

---

[1] مجمع البيان ج ٩ ص ١٣٢ ، تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٨١ .

ويستفاد من الآية أنّ جماعة من أصحاب الرّسول صلّى الله عليه وآله أصـــرّوا على قتال بني المصطلق ، فقال لهم القرآن إنّ هذا هو الجهل بعينه ، وعاقبته الندم .

استفادة من الآيات :

صياغة الأخبار الكاذبة والتّعويل على الأخبار غير المُوَثَّقَة من الأساليب القديمة الّتي تتّبعها النّظم الاستعماريّة والدّيكتاتوريّة لتخلق جوًّا كاذبًا ينخدع به الجهلة من النّاس والمغفّلون ، فتنهب ثرواتهم بهذه الأساليب ، ولو عمل المسلمون بهذا الأمـــر الإلهيّ الوارد في هذه الآية ، ولم يأخذوا بأخبار الفاسقين دون تبيّن لكانوا مَصُونِينَ من البلايا الخطيرة .

والآية التالية – وللتّأكيد على الموضوع المهمّ في الآية السّابقة – تضيف قائلةً : " وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ " [1] .

وتدلّ هذه الجملة – كما ذكر بعض المفسِّرين – أنّه بعد أن أخبر الوليد ابـــن عقبـــة بارتداد بني المصطلق ألحّ جماعة من المسلمين البسطاء السّذّج ذوي النّظـــرة السّطحيّة على الرّسول صلّى الله عليه وآله أن يقاتلهم ، فالقرآن يقول : من حسن حظّكم أنّ فيكم رسول الله ، وهو مرتبط بعالم الوحي ، فمتى ما بدت فيكم بوادر الانحراف فسيقوم بإرشادكم ، فلا تتوقّعوا أن يطيعكم ويتعلّم منكم ، ولا تـــصرّوا وتلحّوا عليه ، فإنّ ذلك فيه عنت لكم ، وليس من مصلحتكم .

ويشير القرآن معقِّبًا إلى موهبة عظيمة أخرى من مواهب الله سبحانه ، فيقول : "وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ" .

---

[1] كلمة "عَنِتُّمْ" : مشتقّة من مادة "العَنَت" ، ومعناه الوقوع في عمل يخاف الإنسان عاقبته أو الأمـــر الّذي يشقّ على الإنسان ، ومن هنا قيل للألم الحاصل من العظم المكسور عنـــد تعرّضه للضّربة بأنه عَنَت .

وهـــذه التّعابير إشارة إلى "قانون اللّطف التّكوينيّ" ، فحينما يريد الـــشّخص الحكيم أن يحقّق أمـــرًا فإنّه يوفّر له جميع ما يلائمه من كلّ جهة ، وَيَصْدُقُ هـــذا الأصل في شأن النّاس ، والله عزّ وجلّ يريد أن يطوي النّاس جميعًا طريق الحقّ دون أن يقعـــوا تحت تأثير الإجبار بل برغبتهم وإرادتهم ، ولذا يرسل إلـــيهم الرّســـل والكتب السّماويّة من جهة ، ويحبّب إليهم الإيمان من جهة أخرى ، ويضيء شعلة الرّغبة نحو طلب الحقّ ، والبحث عنه في داخل النفوس ، ويكـــرّه إليهـــا الكفـــر والفسوق والعصيان ، وهكذا فإنّ كلَّ إنسانٍ مفطورٌ على حبّ الإيمان والطّهـــارة والتّقوى ، والبراءة من الكفر والذّنب ، ولكن من الممكن أن يتلوّث ماء المعنويّات الموجـــودة في الإنســـان في المراحل المتتالية ، وذلك نتيجة للاختلاط بالمحيطـــات الموبوءة ، فيفقد صفاءه ، ويكتسب رائحة الذّنب والكفر والعصيان ، هذه الموهبة الفطريّة تدعـــو النّاس إلى اتّباع رسول الله صلى الله عليه وآله وعدم التّقدّم بـــين يديه .

ومضمـــون الآية لا ينافي المشاورة ؛ لأنّ الهدف من المشاورة أو الـــشّورى أن يُعْرِبَ كلُّ شخص عن عقيدته ووجهة نظره ، إلاّ أنّ الرّأي الأخير والنّظر النّهائيّ يكون للنّبيّ صلّى الله عليـــه وآله ، كما يستفاد ذلك من آية الـــشّورى أيـــضًا ، والشّورى هي موضوع مستقل ، وفرض الرّأي موضوع آخر ، فالآية محلّ البحث تنفي فرض الرّأي لا المشاورة .

المراد من الفُسُوق :

قال بعض المفسِّرين هو الكذب ، إلاّ أنّه مع الالتفات إلى سعة مفهومه اللّغويّ فإنّه يشمل كلّ خروج على الطاعة ، فعلى هذا يكون التّعبير بـــ "العِصْيَانَ" بعـــده تأكيدًا له ، كما أن جملة " وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ " تأكيد للجملة السّابقة : " حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ " .

وقال البعض إنّ كلمة "الفُسُوق" إشارة إلى الذّنوب الكبيرة ، و"العِصْيَانَ" أعمّ منه ، ولكن لا دليل على ذلك .

والقرآن الكريم يقرِّر قاعدة كلّيّة عامّة في نهاية هذه الآية لواجدي الصّفات المذكورة فيها فتقول : " أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ " ، أي لو حفظتم هذه الموهبة الإلهيّة "محبوبيّة الإيمان والنّفور من الكفر والفسوق" ، و لم تلوّثوا هذا النّقاء والصّفات الفطريّة فإنّ الرشد والهداية في انتظاركم .

ومما يلفت النّظر أنّ الجمل السّابقة في الآية كانت بصيغة الخطاب للمؤمنين وجملة : " أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ " تتحدّث عنهم بصيغة الغائب ، ويبدو أنّ هذا التفاوت في التّعبير جاء ليدلّ على أنّ هذا الحكم غير مختصّ بأصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وآله ، بل هو قانون عام ، فكلّ من حفظ صفاءه الفطريّ في أي عصر وزمان هو من أهل الرّشد والهداية والنّجاة .

وأمّا آخر الآيات الكريمة فتوضّح أنّ "محبوبيّة الإيمان والنّفور من الكفر والعصيان" من المواهب الإلهيّة العظمى على البشر إذ تقول : " فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " [1] .

إن علم الله وحكمته يوجبان أن يخلق فيكم عوامل الرّشد والسّعادة ، ويكملها بدعوة الأنبياء إيّاكم ، ويجعل عاقبتكم الوصول إلى الهدف المنشود ، وهو الجنّة .

والفضل والنّعمة كلاهما إشارة إلى حقيقة واحدة ، وهي المواهب الإلهيّة الّتي يمنحها الله عباده ، ولكن سُمِّيَتْ فَضْلاً لأنّ الله غير محتاج إليه ، و سُمِّيَتْ نِعْمَةً لأنّ العباد محتاجون إليها ، فهما بمثابة وجهين لعملة واحدة .

---

[1] فضلاً ونعمةً نُصِبَا على أنّهما مفعولان لأجله للفعل حبّب إليكم ، أو أنهما مفعولان مطلقان لفعلين محذوفين وتقديرهما : هكذا أَفْضَلَ فَضْلاً وَأَنْعَمَ نِعْمَةً .

وعلم الله بحاجة العباد وحكمته في مجال التّكامل وتربية المخلوقات توجبان أن يتفضّل بهذه النّعم المعنويّة الكبرى على عباده ، وهي "محبوبيّة الإيمان والنّفور من الكفر والعصيان" .

ملاحظات :

١- هداية الله وحرّيّة الإرادة :

إنّ الآيات السّابقة تجسيد لوجهة نظر الإسلام في مسألة الجبر والاختيار والهداية والإضلال ؛ لأنّها توضّح أنّ الله يهيّئ الأرضيّة للهداية والرّشد ، فمن جهة يبعث رسوله صلّى الله عليه وآله ويجعله بين الناس ، وينزل القرآن الّذي هو نور ومنهج هداية ، ومن جهة أخرى يلقي في النفوس محبّة الإيمان والنّفور والبراءة من الكفر والعصيان ، ولكن في النّهاية يوكل للإنسان أن يختار ما يشاء ويصمّم بنفسه ، ويشرع الله سبحانه التّكاليف في هذا المجال .

وطبقًا للآيات السّابقة فإنّ محبّة الإيمان والنّفور من الكفر موجودان في قلوب جميع النّاس دون استثناء ، وإذا لم يكن لدى بعضهم ذلك فإنّما هو من جهة أخطائهم وسلوكهم وأعمالهم ، والله لم يُلْقِ في قلب أيّ شخص حبّ العصيان وبغض الإيمان .

٢- القيادة والطّاعة :

هذه الآيات الكريمة تؤكّد مرّة أخرى أنّ وجود القائد الإلهيّ ضروريّ لرشد أيّ جماعة ، ولكن بشرط أن يكون مطاعًا لا مُطِيعًا ، وأن يتّبع أصحابُه وجماعتُه أوامرَه لا أن يؤثّروا عليه ويفرضوا عليه آراءهم لأجل مصالحهم ، وهذه المسألة لا تختصّ بالقادة الإلهيّين ، بل هي حاكمة في الإدارة والقيادة في كلّ مكان ، وحاكميّة هذا الأصل لا تعني استبداد القادة ولا ترك الشورى .

٣- الإيمان نوع من الحبّ لا إدراك العقل فقط :

هـــذه الآيات تشير ضمنًا إلى أنّ الإيمان نوع من العلاقة الإلهيّة المعنويّة الشّديدة وإن كان من الاستدلالات العقلية .

ونقرأ هنا بعض الأحاديث الشّريفة :

عن الإمام الصادق عليه السّلام حينما سئل : هل الحبّ والبغض من الإيمان ؟

فأجاب عليه السّلام : وهل الإيمان إلاّ الحبّ والبغض ؟!

ثم تلا هذه الآية : " وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ " [١] .

وعن الإمام الباقر عليه السّلام قوله : وهل الدّين إلاّ الحبّ ؟

ثمّ استدلّ عليه السّلام ببعض الآيات ، منها هذه الآية محلّ البحـــث ، وقـــال بعدئذٍ : الدّين هو الحبّ ، والحبّ هو الدّين [٢] .

سورة الحجرات الآيات ٩ - ١٠ :

وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

سبب النّزول :

ورد في شـــأن نزول هاتين الآيتين أنّ خلافًا وقع بين قبيلتي الأوس والخزرج في المدينـــة ، وأدّى هذا الخلاف إلى الاقتتال بينهما ، فنزلت الآيتـــان لِتُعَلِّمَا المسلمين

---

[١] أصول الكافي ج ٢ باب الحبّ في الله والبغض في الله ح ٥ .

[٢] تفسير نور الثّقلين ج ٥ ص ٨٣ – ٨٤ .

سبيل المواجهة مع أمثال هذه الحوادث [1] .

وقال بعضهم : حدث بين نفرين من الأنصار خصومة واختلاف ، فقال أحدهما للآخر : سآخذ حقّي منك بالقوّة لأن قبيلتي كثيرة . وقال الآخر : لِنَمْضِ ونحتكم عند رسول الله صلّى الله عليه وآله . فلم يقبل الأوّل ، فاشتدّ الخلاف ، وتنازع جماعة من قبيلتيهما بالعصيّ والسّيوف ، فنزلت الآيتان وبيّنت وظيفة المسلمين في مثل هذه الأمور [2] .

تفسير الآيات ٩ – ١٠ :

المؤمنون إخوة :

يبيّن القرآن الكريم هنا القانون الكلّيّ العامّ لكلّ زمان ومكان : " **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** " [3] .

وكلمة "**اقْتَتَلُوا**" مشتقّة من مادة "القتال" ، ومعناها الحرب ، ولكن تشهد القرائن بشمولها لجميع أنواع النّزاع وإن لم يصل إلى مرحلة القتال والمواجهة العسكريّة .

ويمكن القول بأنّه لو توفّرت مقدّمات النّزاع كالمشاجرات اللّفظيّة الّتي تجرّ إلى المنازعات الدامية فإنّه ينبغي وطبقًا للآية أن يُسْعَى إلى الإصلاح بين المتنازعين ، ويمكن أن يستفاد هذا المعنى من الآية المتقدّمة عن طريق إلغاء خصوصيّة القتال .

والواجب على جميع المسلمين أن يُصْلِحُوا بين المتنازعين منهم لئلاّ تسيل الدّماء ، وأن يعرفوا مسئوليّتهم في هذا المجال ، فلا يكونوا متفرّجين كبعض الجهلة الّذين

---

[1] مجمع البيان ج ٩ ص ١٣٢ .

[2] تفسير القرطبيّ ج ٩ ص ٦١٣٦ .

[3] كلمة "طائفتان" مَثْنَى طائفة ، ولكن فعلها جاء بصيغة الجمع "اقْتَتَلُوا" لأنّ كلّ طائفة مؤلّفة من مجموعة من الأفراد .

يمرّون بهـــذه الأمور دون اكتراث وتأثّر ، فهذه هي وظيفة المـــؤمنين الأولى عنـــد مواجهة أمثال هذه الأمور .

ويبيّن القرآن الكريم الوظيفة الثانية ، وهي : " فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى " و لم تستسلم لاقتراح الصّلح " فَقَاتِلُوا الّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ " .

ولو سالت دماء الطّائفة الباغية والظّالمة فإثمها عليها ، ودماؤها هدر وإن كانوا مسلمين ؛ لأنّ النّزاع واقع بين طائفتين من المؤمنين .

والإسلام يمنع من الظّلم وإن أدّى إلى مقاتلة الظّالم ؛ لأنّ ثمن العدالة أغلى من دماء المسلمين ، ولكن لا يكون ذلك إلاّ إذا فشلت الحلول السّلميّة .

ثم يبيّن القرآن الوظيفة الثالثة ، وهي : " فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ " ، أي لا ينبغي أن يقنع المسلمون بالقضاء على قوّة الطّائفة الباغية الظّالمة ، بل ينبغـــي أن يعقب ذلك الصّلح ، وأن يكون مقدّمة لقلع جذور عوامل النّزاع ، وإلاّ فإنّه بمرور الزّمن ما أن يحسّ الظّالم في نفسه القدرة حتى ينهض ثانية ويثير النّزاع .

قال بعض المفسِّرين : يستفاد مـــن التّعبير " بِالْعَدْلِ " أنّه لو كان يوجد حـــقّ مضـــاع بين الطّائفتين أو دم مراق ممّا يكون منشأً للنّزاع فيجب إصلاحه أيضّا ، وإلاّ فلا يصدق عليه إصلاح بالعدل [1] .

و تميل النّوازع النّفسيّة أحيانًا في بعض الجماعات عند الحكم والقضاء تميل إلى إحدى الطّائفتين المتخاصمتين وتنقض الاستقامة عند القـــضاة ، فـــالقرآن ينـــذر المسلمين ويبيّن ما ينبغي عليهم فيقول : " وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " [2] .

---

[1] تفسير الميزان ج ١٨ ص ٣٤٢ .

[2] كلمة "الْمُقْسِطِينَ" مأخوذة من "القِسْط" ، ومعناها في الأصل التّقسيم بالعدل ، وحينمـــا تَرِدُ على صيغة الفعل الثّلاثيّ "قَسَطَ" – على وزن "ضَرَبَ" – تعني الظّلم والتّجاوز علـــى

والآية التّالية تضيف – لبيان العلّة والتّأكيد على هذا الأمـــر – قائلـــةً : " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ " .

كما تسعـــون للإصلاح بين الأخوين في النّسب ، فينبغي أن لا تألوا جهـــدًا للإصلاح بين المؤمنين المتخاصمين بعدالة تامّة .

وما أحسنه من تعبير إذ يعبّر القرآن عن جميع المـــؤمنين بـــأنهم " إِخْوَةٌ " ، وأن يسمّي النّزاع بينهم نزاعًا بين الإخـــوة ، وأنّه ينبغي أن يبادر إلى إحلال الإصلاح والصّفاء مكان النّزاع .

وحيث إنه في كثير من الأوقات تحلّ "الرّوابط" محلّ " الضّوابط " فإنّ القـــرآن يضيف في نهاية هذه الآية مرّة أخرى قائلاً : " وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ " .

وهكذا تتّضح إحدى أهم المسئوليّات الاجتماعيّة على المسلمين فيما بينـــهم في تحكيم العدالة الاجتماعيّة بجميع أبعادها .

بحوث في الآيات ٩ – ١٠ :

البحث الأوّل : شروط قتال أهل البَغْي :

أهل البغي هم الظّلمة الّذين ينهضون بوجه الإمام العادل للمسلمين ، والآية لا تتحدّث عن قتـــال أهل البغي ، وإنّما تتحدّث عن النّزاع الواقع بـــين الطّـــائفتين المؤمنتين ، وليس في هذا النّزاع نهوض بوجه إمام المسلمين العادل ، والقيام بوجـــه الإمـــام العادل موجب للكفر ، في حين أنّ النّزاع بين المؤمنين موجب للفسق لا الكفر ، ولذلك فإنّ القرآن الكريم عبّر عن الطّائفتين بالمؤمنين وسمّاهم إخوة .

حصّة الآخرين ظلمًا ، ولكن حينما تأتي ثلاثيًّا مزيدًا فيقال : "أَقْسِطْ" فإنّها تعـــني إعطـــاء الحصّة عدلاً ، وهناك بحث في ذيل الآية ٢٩ من سورة الأعراف عن معنى القسط والعـــدل وهل هما بمعنى واحد أو لا ، فراجع هناك .

ويستفاد من الآية المتقدّمة بضميمة قرائن أخرى وخاصّة ما ورد في باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر الأحكام التّالية :

١- الإصلاح بين الطّوائف المتنازعة من المسلمين أمر واجب كفائيّ .

٢- ينبغي لتحقّق الإصلاح بين الطّائفتين أن يبدأ أوّلاً من المراحل البسيطة ، وأن تُرَاعَى قاعدة الأسهل فالأسهل ، وإذا لم ينفع ذلك يجوز عندئذٍ المواجهة المسلّحة بل تجب أحيانا .

٣- ما يُسْفَكُ من دم البغاة في هذا السّبيل وما تذهب منهم من أموال كلّها هدر ؛ لأنّ حكم الشّرع قد امْتُثِلَ وَأُدِّيَتِ الوظيفة الواجبة ، والأصل في مثل هذه الموارد عدم الضمان .

٤- لا حاجة لإذن الحاكم الشّرعيّ في مراحل الإصلاح عن طريق الكلام والمباحثات ، ولكن لا بدّ من إذن الحاكم الشّرعيّ عند اشتداد العمل ، وخاصّة إذا انتهى الأمر إلى سفك الدّماء ، فلا يجوز عندئذٍ الإقدام بأيّ عمل إلاّ بأمر الحاكم الشّرعيّ ، إلاّ في الموارد الّتي لا يمكن الوصول إلى الحاكم الشّرعيّ بأيّ طريق ، فللعدول عندئذٍ وأهل الخبرة من المؤمنين أن يتّخذوا القرار الّذي يرونه مناسبًا .

٥- في حالة ما لو سَفَكَتِ الطّائفة الباغية الظّالمة دمًا من الجماعة المُصْلِحَة أو نهبت أموالاً منها ، فهي ضامنة بحكم الشّرع ، ويجري القصاص منها في صورة وقوع قتل العمد ، وكذلك في مورد تَسْفِكُ فيه دماءً من الطّائفة المظلومة أو تُتْلِفُ منها أموالها فإنّ حكم القصاص والضّمان ثابت أيضًا ، ويتمّ الرّجوع إلى القواعد الواردة في أبواب القصاص والإتلاف .

٦- حيث إنّ الهدف من هذه المقاتلة والحرب حمل الطّائفة الباغية على قبول الحقّ فلا تثار مسألة أسرى الحرب والغنائم لأنّ الطّائفتين مسلمتان ، إلاّ أنّه يجوز الأسر مؤقّتا لإطفاء النّزاع ، ولكن بعد حلّ النّزاع والصّلح يجب إطلاق الأسرى فورًا .

٧- إذا كان طرفا النّزاع باغِيَيْنِ ، فهذا الطّرف قتل جماعةً من الطّائفة الأخرى وسلب مالها ، وذلك الطّرف قتل جماعةً من هذه الطّائفة وسلب أموالها ، دون أن يقنع كلّ منهما بالمقـــدار اللاّزم من الدّفاع ، ففي هذه الحالة وظيفة المسلمين أن يُصْلِحُوا بين الطّرفين ، وإذا لم يوافقا على الصّلح فلا بدّ من قتالهما حتّى يفيئا إلى أمر الله ، وما ذُكِرَسابقًا من أحكام الباغي والظّالم جارٍ في الطّرفين .

البحث الثّاني : أهمّيّة الأخوّة الإسلاميّة :

إنّ جملـــة " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ " واحدة من الشّعارات الأساســيّة المتجــذِّرة في الإسلام ، فهي شعار عميق بليغ مؤثّر ذو معنى غزير ، إنّ الآخرين حينما يريدون إظهار مزيد من العلاقة بمن يشاركهم في المنهج والعمل يعبِّرون عنهم بالرِّفــاق أو الرَّفيق للمفرد ، إلاّ أنّ الإسلام رفع مستوى الارتباط والحبّ بــين المــسلمين إلى درجة جعلها بمستوى أقرب العلائق بين شخصين ، وهي علاقة الأخوين الّتي تقوم العلاقة بينهما على أساس المساواة والتكافؤ ، وبناءً على هذا الأصل الإسلاميّ المهمّ فإنّ المسلمين على اختلاف قبائلهم وقوميّاتهم ولغاتهم وأعمارهم يــشعرون فيمــا بينهم بالأخوّة وإن عاش بعضهم في الشّرق والآخر في الغرب .

مثلاً في مناسك الحجّ حيث يجتمع المسلمون من نقاط العالم كافّــة في مركــز التّوحيد تبدو هذه العلاقة والارتباط والانسجام محسوسةً وميدانًا للتّحقّق الخارجيّ لهذا القانون الإسلاميّ المهمّ .

إنّ الإسلام يرى المسلمين جميعًا بحكم الأسرة الواحــدة ، ويخاطبــهم جميعًــا بالإخوان والأخوات لا في اللّفظ والشّعارات فقط ، بل في العمل أيضًا ، فجميــع المسلمين إخوة وأخوات .

وفي الرّوايات الشّريفة تأكيد على هذه المسألة أيضًا ، ولا سيّما فيمــا يخــصّ الجوانب العمليّة ، منها :

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله : "المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يُسْلِمُهُ" [١] .

وعنه صلّى الله عليه وآله : "مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى" [٢] .

عن الإمام الصّادق عليه السّلام : "المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إذا اشتكى شيء منه وجد ألم ذلك في سائر جسده ، وأرواحهما من روح واحدة " [٣] .

وعنه عليه السّلام : "المؤمن أخو المؤمن ، عينه ، ودليله ، لا يخونه ، ولا يظلمه ، ولا يغشّه ، ولا يَعِدُهُ عِدَةً فيخلفه" [٤] .

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله : "للمسلم على أخيه ثلاثون حقًّا ، لا براءة له منها إلاّ بالأداء أو العفو ، يغفر زلّته ، ويرحم عبرته ، ويستر عورته ، ويقيل عثرته ، ويقبل معذرته ، ويردّ غيبته ، ويديم نصيحته ، ويحفظ خلّته ، ويرعى ذمّته ، ويعود مرضه ، ويشهد ميّته ، ويجيب دعوته ، ويقبل هديّته ، ويكافئ صلته ، ويشكر نعمته ، ويحسن نصرته ، ويحفظ حليلته ، ويقضي حاجته ، ويشفع مسألته ، ويسمت عطسته ، ويرشد ضالّته ، ويردّ سلامه ، ويطيب كلامه ، ويبرّ أنعامه ، ويصدق أقسامه ، ويوالي وليّه ، ولا يعاديه ، وينصره ظالمًا ومظلومًا ، فأمّا نصرته ظالمًا فيردّه عن ظلمه ، وأمّا نصرته مظلومًا فيعينه على أخذ حقّه ، ولا

---

[١] المحجّة البيضاء ج ٣ كتاب الصّحبة والمعاشرة الباب الثّاني ص ٣٣٢ .

[٢] المصدر السّابق .

[٣] أصول الكافي ج ٢ ص ١٣٣ باب أخوّة المؤمنين بعضهم لبعض ح ٣ .

[٤] المصدر السّابق ح ٤ .

يُسْلِمُهُ ، ولا يخذله ، ويحبّ له من الخير ما يحبّ لنفسه ، ويكره له من الشّرّ ما يكره لنفسه" [1] .

سورة الحجرات الآيات ١١ – ١٢ :

يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِن نِسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)

سبب النّزول :

ذكر المفسِّرون لهاتين الآيتين شئونًا مختلفةً في نزولهما ، منها أنّ جملة " لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ " نزلت في ثابت بن قيس خطيب النّبيّ صلّى الله عليه وآله ، فهو كان ثقيل السّمع ، وكان حينما يدخل المسجد يجلس إلى جنب النّبيّ صلّى الله عليه وآله ليسمع حديثه صلّى الله عليه وآله ، وذات مرّة دخل المسجد والمسلمون كانوا قد فرغوا من صلاتهم وجلسوا في أماكنهم ، فكان يشقّ الجموع ويقول : "تفسّحوا تفسّحوا" حتّى وصل إلى رجل من المسلمين فقال له : اجلس . فجلس خلفه مغضبًا حتّى انكشفت العتمة ، فقال ثابت لذلك الرّجل : من أنت ؟ فقال : أنا فلان . فقال له ثابت : ابن فلانة ؟ ، وذكر اسم أمّه بما يكره من لقبها ، وكانت تعرف به في زمان الجاهليّة ، فاستحيى ذلك الرّجل ، وطأطأ برأسه إلى الأرض ، فنزلت الآية ونهت المسلمين عن مثل هذا العمل .

---

[1] بحار الأنوار ج ٧٤ ص ٢٣٦ .

وقيل إنّ جملة " وَلاَ نِسَاءٌ مِن نَسَاءٍ " نزلت في أمّ سلمة إحدى أزواج النّبيّ صلّى الله عليه وآله لأنّها كانت تلبس لبوسًا خاصًّا أو لأنّها كانت قصيرة ، فكانت النّساء يسخرن منها ، فنزلت الآية ونهت عن مثل هذه الأعمال .

وقالوا إنّ جملة " وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا " نزلت في نفرين من الصّحابة اغتابا صاحبهما سلمان لأنّهما كانا قد بعثاه نحو النّبيّ صلّى الله عليه وآله ليأتيهما بطعام منه ، فأرسل النّبيّ صلّى الله عليه وآله سلمان نحو أسامة بن زيد الّذي كان مسئول بيت المال ، فقال أسامة : ليس عندي شيء الآن . فاغتابا أسامة ، وقالا إنّه بخيل ، وقالا في شأن سلمان : لو كنّا أرسلناه إلى بئر سميحة لغاض ماؤها . وكانت بئرًا غزيرة الماء ، ثمّ انطلقا ليأتيا أسامة وليتجسّسا عليه ، فقال لهما النّبيّ صلّى الله عليه وآله : إنّي أرى آثار أكل اللّحم على أفواهكما . فقالا : يا رسول الله ، لم نأكل اللّحم هذا اليوم . فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : أجل تأكلون لحم سلمان وأسامة . فنزلت الآية ، ونهت المسلمين عن الاغتياب [1] .

تفسير الآيات ١١ – ١٢ :

حرمة الاستهزاء وسوء الظّنّ والغيبة والتّجسّس والألقاب السّيّئة :

اهتمّ القرآن الكريم ببناء المجتمع الإسلاميّ على أساس المعايير الأخلاقيّة ، فبعد البحث عن وظيفة المسلمين في مورد النّزاع بين طوائف المسلمين المختلفة بيّن في الآيتين محلّ البحث قسمًا من جذور هذه الاختلافات ليزول الاختلاف ويحسم النّزاع .

في كلّ من الآيتين السّابقتين تعبير صريح وبليغ عن ثلاثة أمور يمكن أن يكون كل منها شرارة لاشتعال الحرب والاختلاف ، إذ تقول الآية الأولى من الآيتين في

---

[1] مجمع البيان ج ٩ ص ١٣٥ ، تفسير القرطبيّ .

المرحلة الأولى : " يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِن نِسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ " .

والخطاب هنا مُوَجَّهٌ إلى المؤمنين كافّة ، فهو يعمّ الرّجال والنّساء وينذر الجميع أن يجتنبوا هذا الأمر القبيح ؛ لأنّ أساس السّخرية والاستهزاء هو الإحساس بالاستعلاء والغرور والكبر وأمثال ذلك حيث كانت تبعث على كثير من الحروب الدامية على امتداد التاريخ .

وهذا الاستعلاء أو التّكبّر غالبًا ما يكون أساسه القيم المادّيّة والظّواهر المادّيّة ، مثلاً فلان يرى نفسه أكثر مالاً من الآخر ، أو يرى نفسه أجمل من غيره ، أو أنه من القبيلة المعروفة ، وربما يسوقه تصوّره بأنّه أفضل من الجماعة الفلانيّة علِمًا وعبادةً يسوقه إلى السّخرية منهم ، في حين أنّ المعيار الواقعيّ عند الله هو التّقوى الّتي تنسجم مع طهارة القلب وخلوص النّيّة والتواضع والأخلاق والأدب .

ولا يصحّ لأيّ أحد أن يقول : "أنا أفضل عند الله من سواي" ، ولذلك يعتبر تحقير الآخرين والتّعالي بالنّفس من أسوأ الأمور ، وأقبح العيوب الأخلاقيّة الّتي يمكن أن تكون لها انعكاسات سلبيّة في حياة الناس .

ثم تقول الآية الكريمة في المرحلة الثّانية : " وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ " ، كلمة " تَلْمِزُوا " هي من مادّة " لَمَزَ " ، ومعناها تتبّع العيوب والطّعن في الآخرين ، وقول القرآن الكريم " أَنْفُسَكُمْ " يشير إلى وحدة المؤمنين وأنّهم نسيج واحد ، فجميع المؤمنين بمثابة النّفس الواحدة ، فمن عاب غيره فإنّما عاب نفسه .

وتضيف الآية الكريمة في المرحلة الثّالثة قائلةً : " وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ " ، فهناك الكثير من الأفراد مُولَعُونَ بالتّراشق بالألفاظ القبيحة ، ومن هذا المنطلق فهم يحقّرون الآخرين ويدمّرون شخصيّاتهم ، وربما انتقموا منهم أحيانا عن هذا الطريق ، وقد يتّفق أنّ شخصًا كان يعمل المنكرات سابقًا ، ثم تاب وأناب

وأخلص قلبه لله تعالى ، ولكن مع ذلك نراهم يرشقونه بلقب مُبْتَذَل كاشف عن ماضيه ، والإسلام نهى عن هذه الأمور بصراحة ، ومنع عن إطلاق أيّ اسم أو لقب غير مرغوب فيه يكون مَدْعاةً لتحقير المسلم .

وفي بعض الأحاديث أنّ صفيّة بنت حيي بن أخطب المرأة اليهوديّة الّتي أسلمت بعد فتح خيبر وأصبحت زوجة النبي صلّى الله عليه وآله جاءت يومًا إليه صلّى الله عليه وآله وهي باكية العين ، فسألها صلّى الله عليه وآله عن سبب بكائها ، فقالت : إنّ فلانة تقول لي يا ابنة اليهوديّ . فقال لها النّبيّ صلّى الله عليه وآله : فَلِمَ لَمْ تقولي لها : أبي هارون وعمّي موسى وزوجي محمّد ؟ ، فكان أن نزلت هذه الآية محلّ البحث [1] .

والآية الكريمة تضيف قائلةً : " بِئْسَ الِاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ " ، أي قبيح جدًّا على من دخل في سلك الإيمان أن يذكر النّاس بسمات الكفر .

وتختتم الآية الكريمة لمزيد التّأكيد بالقول : " وَمَن لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ " ، وأيّ ظلم أسوأ من أن يؤذي شخصٌ بالكلمات اللاّذعة والتّحقير واللّمز قلوب المؤمنين الّتي هي مركز حبّ الله عزّ وجلّ ، وأن يطعن في شخصيّاتهم ويبتذل كرامتهم وماء وجوههم الّذي هو أساس حياتهم .

وفي كلّ من الآيتين محلّ البحث ثلاثة أحكام في مجال الأخلاق الاجتماعيّة ، فالأحكام الثّلاثة في الآية الأولى هي عدم السّخرية وترك اللّمز وترك التّنابز بالألقاب ، والأحكام الثّلاثة في الآية الثّانية هي اجتناب سوء الظّن والتّجسّس والاغتياب .

في هذه الآية الثّانية يبدأ القرآن الكريم فيقول : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ " ، والمراد من " كثيرًا من الظّنّ " هو الظّنون السّيّئة الّتي تغلب

---

[1] مجمع البيان ج ٩ ص ١٣٦ .

على الظّنون الحسنة بين الناس ، لذلك عبّر عنها بـ "الكثير" ، وإلاّ فإنّ حسن الظّنّ مستحسن كما في قوله تعالى : " لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا " [1] .

من الملاحظ أنّ القرآن الكريم قد نهي عن كثير من الظّنّ ، إلاّ أنّه في مقام التّعليل تقول الآية : " إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ " ، ولعلّ هذا الاختلاف في التعبير ناشئ من أنّ بعض الظّنون السّيّئة مطابق للواقع ، وبعضها مخالف له ، فما خالف الواقع فهو إثم لا محالة ، ولذلك قالت الآية : " إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ " ، وعلى هذا فيكفي هذا البعض من الظّنون الّذي يكون إثمًا أن نتجنّب سائر الظّنون لئلاَّ نقع في الإثم .

وهنا يأتي السّؤال التّالي :

الظّنّ السّيّئ أو الظّنّ الحسن ليسا اختياريّين غالبًا ، وإنّما يأتيان إلى الذّهن بدون اختيار الإنسان ، فكيف يصحّ النّهي عن أمر غير اختياريّ ؟

الجواب :

١- المراد من النّهي هو النّهي عن ترتيب الآثار ، أي أنّه متى ما خطر الظّنّ السّيّئ في الذّهن فلا ينبغي الاعتناء به عمليًّا ، ولا ينبغي تبديل أسلوب التّعامل مع الآخرين ولا تغيير العلاقات معهم ، فعلى هذا الأساس فإنّ الإثم هو ترتيب الأثر على الظّنّ السّيّئ .

لذلك وَرَدَ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله : " ثلاثٌ في المؤمن لا يُسْتَحْسَنُ ، وله منهنّ مخرج ، فمخرجه من سوء الظّنّ أن لا يحقّقه" [2] .

٢- يستطيع الإنسان أن يبعد عن نفسه سوء الظّنّ بالتّفكير في المسائل المختلفة ، مثلاً أن يفكّر في طرق الحمل على الصّحّة ، وأن يجسّد في ذهنه

---

[1] النّور : ١٢ .

[2] المحجّة البيضاء ج ٥ ص ٢٦٩ .

الاحتمالات الصّحيحة الموجودة في ذلك العمل ، وهكذا يتغلّب تدريجيّا على سوء الظّنّ ، وبناءً على هذا فليس سوء الظّنّ يخرج عن اختيار الإنسان دائمًا .

لذلك وَرَدَ في الرّوايات الشريفة أنه : "ضَعْ أمر أخيك على أحسنه حتّى يأتيك ما يقلبك منه ، ولا تظنّنّ بكلمة خرجت من أخيك سوءًا وأنت تجد لها في الخير مَحْمَلاً" [1] .

ثم تذكر الآية الكريمة موضوع "التّجسّس" ، فتنهى عنه : " **وَلاَ تَجَسَّسُوا** " ، و"التّجسّس" و"التّحسّس" كلاهما بمعنى البحث والتّقصّي ، ولكن الفرق بينهما هو أنّ الكلمة الأولى "التّجسّس" تستعمل غالبًا في البحث عن الأمور غير المطلوبة ، والكلمة الثانية "التّحسّس" تستعمل في البحث عن الأمور المطلوبة أو المحبوبة ، ومنه ما ورد على لسان يعقوب عليه السّلام في وصيته لأبنائه : "**يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسَفَ وَأَخِيهِ**" [2] .

إن سوء الظّنّ باعث على التّجسّس ، والتّجسّس باعث على كشف الأسرار وما خفي من أمور النّاس ، والإسلام لا يبيح أبدًا كشف أسرار النّاس ، إنّ الإسلام يريد أن يكون النّاس في حياتهم الخاصّة آمنين من كلّ الجهات ، ولو سمح الإسلام لكلّ أحد أن يتجسّس على الآخرين فإنّ كرامة النّاس تتعرّض للزّوال ، وتتولّد من ذلك حياة يحسّ فيها جميع أفراد المجتمع بالقلق والتفرّق .

وأخيرًا فإنّ الآية الكريمة تضيف في آخر هذه الأوامر والتّعاليم نتيجة الأمرين السّابقين فتقول : " **وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا** " .

وهكذا فإنّ سوء الظّنّ هو أساس التّجسّس ، والتّجسّس يستوجب إفشاء

---

[1] أصول الكافي ج ٢ باب التّهمة وسوء الظّنّ ح ٣ ، نهج البلاغة الكلمات القصار رقم ٣٦٠ .

[2] يوسف : ٨٧ .

العيوب والأسرار ، والاطّلاع عليها يستوجب الغيبة ، والإسلام ينهى عن جميعها أسبابًا ونتائج .

ولتقبيح هذا العمل يتناول القرآن مثلاً بليغًا يجسّد هذا الأمر فيقول : " أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيه مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ " ، إنّ كرامة المسلم وسمعته كلحم جسده ، وابتذال ماء وجهه وسمعته بسبب اغتيابه وإفشاء أسراره الخفيّة كمثل أكل لحمه ، وكلمة " مَيْتًا " للتّعبير عن أنّ الاغتياب إنّما يقع في غياب الأفراد ، فمثلهم كمثل الموتى الّذين لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم ، وهذا الفعل أقبح ظلم يصدر عن الإنسان في حقّ أخيه ، إنّ هذا التّشبيه يبيّن قبح الاغتياب وإثمه العظيم .

وتولي الرّوايات الشّريفة – كما سيأتي بيانها – أهمّيّة قصوى لمسألة الاغتياب ، ونادرًا ما نجد من الذّنوب ما فيه من الإثم إلى هذه الدّرجة .

ومن الممكن أن يكون بعض الأفراد ملوَّثين بهذه الذّنوب الثّلاثة ، ويدفعهم وجدانهم إلى التّيقّظ والانتباه فيلتفتون إلى خطئهم ، فالآية تفتح الطّريق لهم إذ تختتم بقوله تعالى : " وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ " ، فلا بدّ أن تحيى روح التّقوى والخوف من الله أوّلا ، وعلى إثر ذلك تكون التّوبة والإنابة حتّى تشملهم رحمة الله ولطفه .

بحوث في الآيات ١١ – ١٢ :

البحث الأوّل : الأمن الاجتماعيّ الكامل :

إنّ الأوامر والتّعاليم السّتّة الواردة في الآيتين السّابقتين – وهي النّهي عن السّخرية واللّمز والتّنابز بالألقاب وسوء الظّنّ والتّجسّس والاغتياب – إذا نفذت في المجتمع فإنّ سمعة وكرامة الأفراد في ذلك المجتمع تكون مضمونةً من جميع الجهات ، فلا يستطيع أحدٌ أن يسخر من الآخرين ، ولا يمدّ لسانه باللّمز ، ولا يستطيع أن يهتك حرمتهم باستعمال الألقاب القبيحة ، ولا يحقّ له أن يسيء الظّنّ بهم ، ولا يتجسّس على حياة الأفراد الخاصّة ، ولا يكشف عيوبهم الخفيّة

باغتيابهم .

إنّ للإنسان رؤوس أموال أربعة ، ويجب أن تحفظ جميعًا في حصن هذا القانون ، وهي : النّفس ، والمال ، والعِرْض ، وماء الوجه أي السُّمْعَة ، والتّعابير الواردة في الآيتين الكريمتين والرّوايات الشّريفة تدلّ على أنّ ماء وجه الأفراد وسمعتهم كأنفسهم وأموالهم ، بل هو أهمّ من بعض الجهات .

الإسلام يريد أن يحكم المجتمع أمنٌ مطلقٌ ، ولا يكتفي بأن يكفّ النّاس عن ضرب بعضهم بعضًا فقط ، بل أسمى من ذلك بأن يكونوا آمنين من ألسنتهم ، بل وأرقى من ذلك أن يكونوا آمنين من تفكيرهم وظنّهم أيضًا ، وأن يحسّ كلٌّ منهم أنّ الآخر لا يرشقه بنبال الاتّهامات في دائرة أفكاره ، وهذا الأمن في أعلى مستوى ، ولا يمكن تحقّقه إلا في مجتمع رساليّ مؤمن .

عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله : "إنّ الله حرّم من المسلم دمه وماله وعرضه ، وأن يُظَنَّ به السّوء" [1] .

إنّ سوء الظّنّ لا أنّه يؤثّر على الطّرف المقابل ويسقطه فقط ، بل هو بلاء عظيم على صاحبه لأنّه يكون سببًا لإبعاده عن التّعاون مع الناس ، ويخلق له عالَمًا من الوحشة والغربة والانزواء ، كما ورد في حديث عن الإمام عليّ عليه السّلام : "مَنْ لَمْ يحسن ظنّه استوحش من كلّ أحد" [2] .

إنّ ما يفصل حياة الإنسان عن الحيوان ويمنحها الحركة والرّونق والتّكامل هو روح التّعاون الجماعيّ ، ولا يتحقّق هذا الأمر إلاّ في صورة أن يكون الاعتماد على النّاس وحسن الظّنّ بهم حاكمًا ، وسوء الظّنّ يهدم قواعد هذا الاعتماد ، وتنقطع به روابط التّعاون ، وتضعف به الرّوح الاجتماعيّة ، وهكذا الحال في التّجسّس والغيبة أيضًا .

---

[1] المحجّة البيضاء ج ٥ ص ٢٦٨ .

[2] غرر الحكم ص ٦٩٧ .

إن سَيِّئِي النّظرة والظّنّ يخافون من كلّ شيء ، ويستوحشون من كلّ أحد ، وتستولي على أنفسهم نظرة الخوف ، فلا يستطيعون أن يقفوا على وليّ ومؤنس يطوي الهموم ، ولا يجدون شريكًا في النّشاطات الاجتماعيّة ، ولا مُعِينًا ونصيرًا ليوم الشّدّة .

والمراد من "الظّنّ" هنا هو الظّنّ الّذي لا يستند إلى دليل ، فإذا كان الظّنّ في بعض الموارد مستندًا إلى دليل فهو ظنّ مُعْتَبَر ، وهو مُسْتَثْنَى من هذا الحكم ، كالظّنّ الحاصل من شهادة شخصين عادلين .

البحث الثّاني : لا تجسّسوا :

إنّ القرآن الكريم يمنع جميع أنواع التّجسّس بصراحة تامّة ، وحيث إنه لم يذكر قيدًا أو شرطًا في الآية فيدلّ هذا على أنّ التّجسّس في أعمال الآخرين والسّعي إلى إذاعة أسرارهم إثم ، والقرائن الموجودة داخل الآية وخارجها تدلّ على أنّ هذا الحكم متعلّق بحياة الأفراد الشّخصيّة والخصوصيّة .

ويصدق هذا الحكم أيضًا في الحياة الاجتماعيّة في صورة أَنْ لا يؤثّر في مصير المجتمع ، وإذا كان لهذا الحكم علاقة بمصير المجتمع أو مصير الآخرين فإنّ المسألة تأخذ طابعًا آخر ، ومن هنا فإنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله كان قد أعدّ أشخاصًا وأمرهم أن يكونوا عيونًا لجمع الأخبار واستكشاف المجريات واستقصائها ليحيط بما له علاقة بمصير المجتمع .

ومن هذا المنطلق يمكن للحكومة الإسلاميّة أن تتّخذ أشخاصًا يكونون عيونًا لها للإحاطة بمجريات الأمور ، وأن يواجهوا المؤامرات الّتي تُحاكُ ضدّ المجتمع أو الّتي يراد بها إرباك الوضع الأمنيّ في البلاد ، فيتجسّسون للمصلحة العامّة ، ولكن هذا الأمر لا ينبغي أن يكون ذريعةً لهتك حرمة القانون الإسلاميّ الأصيل ، وأن يسوِّغ بعض الأفراد لأنفسهم أن يتجسّسوا على حياة الأفراد الخاصّة بذريعة التّآمر والإخلال بالأمن ، فيفتحون رسائلهم أو يراقبون هواتفهم أو يهجمون على بيوتهم

بين حين وآخر ، فيوجد فرق بين التّجسّس بمعناه السّلبيّ وبين معرفة الأخبار الضّروريّة لحفظ أمن المجتمع بشرط أَنْ لا يؤدّي إلى هتك حرمة أسرار النّاس وتهديد أمن المجتمع .

البحث الثّالث : الغيبة من أعظم الذّنوب :

رأس مال الإنسان المهمّ في حياته سمعته وماء وجهه ، وأيّ شيء يهدّده فكأنّما يهدّد حياته بالخطر ، وأحيانًا يُعَدُّ اغتيال وقتل الشّخصيّة أهمّ من اغتيال الشخص نفسه ، ومن هنا كان إثمه أكبر من قتل النّفس أحيانًا .

إنّ من حِكَمِ تحريم الغيبة أَنْ لا تَتَعَرَّضَ سمعة الأشخاص لخطر التّلوّث ، وأَنْ لا تُهْتَكَ حرمة الأشخاص ، وهذا مطلب مهمّ اهتمّ به الإسلام اهتمامًا بالغًا ، والأمر الآخر أَنَّ الغيبة تُنْتِجُ النّظرة السّيّئة ، وتضعف العلاقات الاجتماعيّة ، وتزلزل قواعد التّعاون الاجتماعيّ ، والإسلام أعطى أهمّيّةً بالغةً للوحدة والانسجام والتّضامن بين أفراد المجتمع ، فكلّ أمر يقوّي هذه الوحدة فهو محلّ قبول الإسلام وتقديره ، وما يؤدّي إلى الإخلال بالأواصر الاجتماعيّة فهو مرفوض ، والاغتياب هو أحد عوامل الوهن والضّعف ، فالاغتياب يزرع في القلوب بذور الحقد والعداوة ، وربّما أدّى إلى الاقتتال وسفك الدّماء ، والاغتياب يُعَدُّ واحدًا من كبائر الذّنوب بسبب آثاره السّيّئة الفرديّة والاجتماعيّة .

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله : "إنّ الدّرهم يصيبه الرّجل من الرّبا أعظم عند الله في الخطيئة من ستّ وثلاثين زنية يزنيها الرجل ، وأربى الرّبا عِرْضُ الرّجل المسلم" [1] .

وذلك لأنّ الزنا وإن كان قبيحًا وسيّئًا إلاّ أنّ فيه جنبة حقّ الله عزّ وجلّ ، ولكنّ الرّبا وما هو أشدّ منه كسمعة الإنسان وما إلى ذلك فيه جنبة حقّ النّاس .

---

[1] المحجّة البيضاء ج ٥ ص ٢٥٣ .

وَرَدَ أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله خطب يومًا فقال : "يا مَعْشَرَ من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتّبعوا عوراتهم ؛ فإنّه من تتبّع عورة أخيه تتبّع الله عورته ، ومن تتبّع الله عورته يفضحه في جوف بيته" [١] .

وَوَرَدَ أنّ الله عزّ وجلّ أوحى لموسى عليه السّلام : "من مات تائبًا من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنّة ، ومن مات مُصِرًّا عليه فهو أوّل من يدخل النّار" [٢] .

وعن النّبيّ صلّى الله عليه وآله : "الغيبة أسرع في دين الرّجل المسلم من الآكِلَةِ في جوفه" [٣] .

وهذا التّشبيه يدلّ على أنّ الاغتياب مثل المرض الّذي يأكل اللحم ، فإنّه يذهب بالإيمان بسرعة .

وعن الإمام الصّادق عليه السّلام : "من رَوَى على مؤمن روايةً يريد بها شَيْنَهُ وهدم مروّته ليسقط من أعين النّاس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشّيطان فلا يقبله الشّيطان" [٤] .

إنّ بواعث الغيبة ودوافعها أمور متعدّدة ، كالحسد والكِبْر والبخل والحقد والأنانيّة وأمثالها من الصّفات الذّميمة القبيحة ، وبسبب هذه الدّوافع يتّضح السّرّ في كون الغيبة وتلويث سمعة المسلمين وهتك حرمتهم لها هذا الأثر المدمّر لإيمان الشّخص .

إنّ جميع هذه التّأكيدات إنّما هي للأهمّيّة القصوى الّتي يُولِيها الإسلام لصون سمعة المؤمنين الاجتماعيّة ، وكذلك للأثر المخرِّب الّذي تتركه الغيبة في وحدة

---

[١] المحجّة البيضاء ج ٥ ص ٢٥٢ .

[٢] المصدر السّابق .

[٣] أصول الكافي ج ٢ باب الغيبة ح ١ ، الآكِلَة : مرض يقع في العضو فيأكل منه ، وقد يكون هو المرض الخبيث أي السّرطان .

[٤] وسائل الشّيعة ج ٨ ص ٦٠٨ ح ٢ .

المجتمع والثّقة المتبادلة في القلوب ، وأسوأ من كل ذلك أنّ الغيبة تؤدّي إلى إشعال نار العداوة والبغضاء والنّفاق وإشاعة الفحشاء في المجتمع ؛ لأنّه حين تنكشف عيوب النّاس الخفيّة عن طريق الغيبة لا يبقى لها ضرر في أعين النّاس ، ويكون الاتّصاف بها في غاية البساطة .

البحث الرّابع : مفهوم الغيبة :

الغيبة أو الاغتياب هو ما يقال في غياب الشّخص ، وبالغيبة يكشف المغتاب عيبًا من عيوب النّاس سواء كان عيبًا جسديًّا أم أخلاقيًّا أم عمليًّا أم لسانيًّا أم في الأمور المتعلّقة به كاللّباس والبيت والزّوج والأبناء وغير ذلك .

إنّ ذكر العيوب الخفيّة بأيّ قصد كان يُعَدُّ غيبةً ، وهو حرام ، وأمّا ما يقال عن الصّفات الظّاهرة للشّخص فلا يُعَدُّ اغتيابًا إلاّ أن يراد منه الذّمّ والعيب فهو في هذه الصّورة حرام أيضًا ، كما لو قيل في مقام الذّمّ أنّ فلانًا أعمى أو أعور أو قصير القامة أو شديد السّمرة وغير ذلك .

كلّ هذا فيما لو كانت هذه العيوب في الطّرف الآخر واقعيّة وموجودة فيه ، وأمّا إذا لم تكن فيه فتدخل تحت عنوان "البُهْتَان" ، وإثمه أشدّ من الاغتياب بمراتب كثيرة .

عن الإمام الصّادق عليه السّلام : "الغيبة أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه ، وأمّا الأمر الظّاهر فيه مثل الحدّة والعجلة فلا ، والبُهْتَان أن تقول ما ليس فيه" [1] .

البحث الخامس : علاج الغيبة والتّوبة منها :

إنّ الغيبة – كسائر الصّفات الذّميمة – تتحوّل تدريجيًّا إلى مرض نفسيّ بحيث يلتذّ المغتاب من فعله ، ويحسّ بالاغتباط والرّضا عندما يشوِّه سمعة فلان ، وهذه مرتبة من مراتب المرض القلبيّ الخطير جدًّا .

---

[1] أصول الكافي ج ٢ باب الغيبة والبهت ح ٧ .

ومن هنا ينبغي على المغتاب أن يسعى إلى علاج البواعث الباطنيّة القلبيّة للاغتياب الّتي تكمن في أعماق روحه وتحضّه على هذا الذّنب ، من قبيل الحسد والحقد والعداوة والاستعلاء والأنانيّة ، فعليه أن يطهّر نفسه عن طريق بناء شخصيّته ، والتّفكير في العواقب السّيّئة لهذه الصّفات الذّميمة ، وما ينتج عنها من نتائج مشئومة ، ويغسل قلبه عن طريق الرّياضة الرّوحيّة ليستطيع أن يحفظ لسانه من التّلوّث بالغيبة .

وبعد ذلك يتوجّه إلى مقام التّوبة ، وحيث إنّ التّوبة من الغيبة فيها جنبة حقّ النّاس فإنّ عليه إذا كان ممكنًا ولا يحصل له أيّ مشكلة أن يعتذر ممّن اغتابه حتّى ولو بصورة مجملة كأن يقول : "إنّني أغتابك أحيانًا لجهلي ، فسامحني واعْفُ عنّي" ، ولا يطيل في بيان الغيبة وشرحها لئلاّ يحدث عامل آخر للفساد .

وإذا لم يستطع الوصول إلى الطّرف الآخر أو لا يعرفه أو أنّه مضى إلى ربّه فيستغفر له ويعمل صالحًا له ، فلعلّ الله يغفر له ببركة العمل الصّالح ويرضى عنه الطّرف الآخر .

البحث السّادس : موارد الاستثناء من الغيبة :

إنّ قانون الغيبة له استثناءات ، منها أنّه يتّفق أحيانًا في مقام الاستشارة لانتخاب الزّوج أو الزّوجة أو الشّريك في التجارة وما إلى ذلك أن يسأل شخص عن شخص ، والأمانة في المشورة – الّتي هي قانون إسلاميّ – توجب أن تبيّن العيوب إن وجدت في الشّخص الآخر لئلاّ يتورّط هذا الشخص في مشكلة ، فمثل هذا الاغتياب بمثل هذا القصد لا يكون حرامًا ، وكذلك في الموارد الأخرى الّتي فيها أهداف مهمّة ، كهدف المشورة في العمل ، أو لإحقاق الحقّ ، أو التّظلّم ، وما إلى ذلك .

وأمّا المتجاهر بالفسق فإنّه خارج عن موضوع الغيبة ، ولو ذكر إثمه في غيابه فلا يوجد إثم على مغتابه ، ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ هذا الحكم خاصّ بالذّنب

الّذي يتجاهر به فقط ، ولا يسري إلى الذّنوب التي لا يتجاهر بها .

وقول الغيبة ليس حرامًا فقط ، بل الاستماع إليها حرام أيضًا ، والحضور في مجلس الاغتياب حرام ، ويجب أن يَرُدَّ على المغتاب ويدافع عن أخيه الّذي يُرَادُ تشويه سمعته ، وما أحسن المجتمع الّذي تُرَاعَى فيه هذه الأصول الأخلاقيّة بدقة .

سورة الحجرات الآية ١٣ :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)

تفسير الآية ١٣ :

التّقوى أغلى القيم الإنسانيّة :

كان الخطاب في الآيات السّابقة موجَّها للمؤمنين ، وكان بصيغة : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا " ، وقد نهى الذّكر الحكيم في آيات متعدّدة عمّا يُوقِعُ المجتمع الإسلاميّ في خطر .

والآية محلّ البحث تخاطب جميع النّاس ، وتبيّن أهمّ أصل يضمن النّظام ، وتميّز الميزان الحقيقيّ للقيم الإنسانيّة عن القيم الباطلة ، فتقول : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا " .

والمراد بـ " خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى " هو أصل الخلقة وعودة أنساب النّاس إلى آدم وحواء ، وطالما كان الجميع من أصل واحد فلا ينبغي أن تفتخر قبيلة على أخرى من حيث النّسب ، وإذا كان الله سبحانه قد خلق كلّ قبيلة وأعطاها خصائص ووظائف معيّنة فإنّما ذلك لحفظ نظام حياة النّاس الاجتماعيّة ؛ لأنّ هذه الاختلافات مَدْعَاةٌ لتعارف النّاس ، فلو كانوا متشابهين لسادت الفوضى في المجتمع البشريّ أجمع .

والفرق بين الشّعب والقبيلة هو أنّ دائرة الشعب أوسع من دائرة القبيلة ، كما هو المعروف في العصر الحاضر أنّ الشّعب يُطْلَقُ على أهل الوطن الواحد .

والقرآن الكريم بعد أن يرفض أكبر معيار للمفاخرة والمباهاة في العصر الجاهليّ ، ويلغي التّفاضل بالأنساب والقبليّة ، يتّجه نحو المعيار الحقيقيّ للتّفاضل ، فيقول : "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ " .

وهكذا فإنّ القرآن يشطب جميع الامتيازات الظّاهريّة والمادّيّة ، ويعطي الأصالة والواقعيّة لمسألة التّقوى والخوف من الله ، ويقول إنّه لا شيء أفضل من التّقوى في سبيل التّقرّب إلى الله تعالى .

والتّقوى صفة روحانيّة باطنيّة فينبغي أن تكون مستقرّة في القلب والرّوح ، وربّما يوجد مُدَّعُونَ كثيرون للتّقوى ، ولكن المتّصفون بها حقيقةً هم قلّة ، والقرآن يضيف في نهاية الآية قائلاً : " إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " ، فالله تعالى يعرف المتّقين حقًّا ، وهو مطّلع على درجات تقواهم وطهارتهم وصفائهم وخلوص نيّاتهم ، فهو يكرمهم ويثيبهم طبقًا لعلمه ، وأمّا المُدَّعُونَ الكذبة فإنّه يحاسبهم ويجازيهم على كذبهم .

بحوث في الآية ١٣ :

البحث الأوّل : القيم الحقّة والقيم الباطلة :

إنّ كلّ إنسان يرغب بفطرته أن يكون ذا قيمة وافتخار ، لذلك فهو يسعى بجميع وجوده لكسب القيم ، ولكن معيار القيم يختلف باختلاف الثّقافات ، وربّما أخذت القيم الكاذبة مكانًا بارزًا و لم تُبْقِ للقيم الحقّة مكانًا في قاموس ثقافة الفرد .

وتوجد جماعة ترى بأنّ قيمتها الحقيقيّة تكون في الانتساب إلى القبيلة أو الطّائفة المعروفة ، لذلك فإنّهم من أجل أن تعلو سمعة قبيلتهم وطائفتهم فإنّهم يقومون بأعمال ليكونوا برفعة القبيلة وسموّها من الأكابر .

وكان الاهتمام بالقبيلة والافتخار بالانتساب إليها من أكثر الأمـــور الوهميّـــة رواجًا في الجاهليّة إلى درجة أنّ كلّ قبيلة كانت تعتبر نفسها أشرف مـــن القبيلـــة الأخرى ، ومن المؤسف أن نجد رواسب هذه الجاهليّة في أعماق نفوس الكـــثيرين من الأفراد والمجتمعات .

وجماعة أخرى تعتمد على المال والثّروة وامتلاكها للقصور والخدم والحـــشم ، فتعتبرها دليلاً على القيمة الشّخصيّة ، وتسعى من أجل كلّ ذلك دائمًا .

وجماعة تعتبر المناصب السّياسيّة والاجتماعيّة العليا معيارًا للشّخصيّة والقيمـــة الاجتماعيّة .

وهكذا تخطو كلّ جماعة في طريق خاصّ ، وتنشدّ قلوبها إلى قيمـــة معيّنـــة ، وتعتبرها معيارها الشّخصيّ .

وهذه الأمور جميعها أمور متزلزلة ومسائل ذاتيّة ومادّيّة عابرة ، لذلك فإنّ مبدأً سماويًّا كمبدأ الإسلام لا يمكنه أن يوافق عليها أبدًا ، فالإسلام يشطب عليها بعلامة البطلان ، وَيَعْتَبِرُ القيمة الحقيقيّة للإنسان في صفاته الذّاتيّة ، وخاصّة تقواه وطهارة قلبه والتزامه الدّينيّ ، ولا يكترث بموضوعات مهمّة كالعلم والثّقافة إذا لم تكن في خطّ الإيمان والتّقوى والقيم الأخلاقيّة .

والقرآن الكريم ظهـــر في محيط يهتمّ بالقيمة القبليّة أكثر من اهتمامه بـــالقيم الأخرى ، ولكنّه حطّم هذه الوثنيّة ، وحرّر الإنسان من أَسْرِ العِرْق والدّم والقبيلة واللّون والمال والمقام والثّروة ، وقاده إلى معرفة نفسه ، والعثور على ضالّته داخـــل نفسه وصفاتها العليا .

وما ذُكِرَ في شأن نزول الآية محلّ البحث دقائق تحكي عن عمق هذا الدّســـتور الإسلاميّ ، منها :

إنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله أمر بلالاً بعد فتح مكة أن يؤذّن ، فـــصعد بـــلال وأذّن على ظهر الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد الذي كان من الأحرار : أَشْكُرُ اللهَ

أن مضى أبي من هذه الدّنيا و لم يَرَ مثل هذا اليوم . وقال الحارث بن هشام : ألم يجد رسول الله غير هذا الغراب الأسود للأذان ؟! ، فنزلت الآية السّابقة وبيّنت معيار القيم الحقيقيّة [1] .

وقال بعضهم : نزلت الآية عندما أمر الرّسول صلّى الله عليه وآله بتزويج بعض الموالي من بنات العرب ، و"الموالي" تطلق على العبيد الّذين عُتِقُوا من ربقة أسيادهم أو على غير العرب . فتعجّبوا وقالوا : يا رسول الله ، أتأمرنا أن نزوّج بناتنا من الموالي؟ ، فنزلت الآية السّابقة ، وأبطلت هذه الأفكار الوهميّة [2] .

وعن النّبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه خطب يومًا في مكّة فقال : "يا أيّها النّاس ، إنّ اللهَ قد أذهب عنكم عيبة الجاهليّة وتعاظمها بآبائها ، فالنّاس رجلان : رجل بَرٌّ تقيّ كريم على الله ، وفاجر شقيّ هيّن على الله ، والنّاس بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب ، قال الله تعالى : " يَا أَيُّهَا النَاسُ إِنَا خَلَقْنَاكُم مّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " [3] .

وجاء في كتاب آداب النّفوس للطّبريّ أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله التفت إلى النّاس وهو راكب على بعيره في أيّام التّشريق بمنى – وهي اليوم الحادي عشر والثّاني عشر والثّالث عشر من ذي الحجّة – فقال : يا أيّها النّاس ، ألا إنّ ربّكم واحد ، وإنّ أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربيّ على عجميّ ولا لعجميّ على عربيّ ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلاّ بالتّقوى ، ألا هل بلّغت ؟ قالوا : نعم . قال : ليبلّغ الشّاهد الغائب [4] .

---

[1] روح البيان ج ٩ ص ٩٠ ، تفسير القرطبيّ ج ٩ ص ٦١٦٠ .

[2] المصدر السّابق .

[3] تفسير القرطبيّ ج ٩ ص ٦١٦١ .

[4] المصدر السّابق ص ٦١٦٢ .

وعنه صلّى الله عليه وآله : "إنّ الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنّن الله عليه ، وإنما أنتم بنو آدم ، وأحبّكم إليه أتقاكم" [1] .

والعجيب أنّه مع هذه التّعاليم الواسعة الغنيّة ما يزال بين المسلمين من يعوّل على الدّم والنّسب واللّسان ، ويقدّمون وحدة الدّم واللّغة على الأخوّة الإسلاميّة والوحدة الدّينيّة ، ويحيون العصبيّة الجاهليّة مرّة أخرى ، وبالرّغم من الضّربات الشّديدة الّتي يتلقّونها من جرّاء ذلك إلاّ أنّهم لا يريدون أن ينتبهوا ويعودوا إلى حكم الإسلام .

إنّ الإسلام حارب العصبيّة الجاهليّة بأيّ شكل كانت لأجل أن يجمع المسلمين في العالم من أيّ قوم وقبيلة وعِرْقٍ تحت لواء واحد ؛ لأنّ الإسلام لا يوافق على هذه النّظريّات المحدودة ، ويعتبر جميع هذه الأمور وهميّة لا أساس لها .

وقد وَرَدَ عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله أنه قال : "دعوها فإنّها منتنة" [2] .

ما أحسن أن يُبْنَى المجتمع على أساس " إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ " ، وأن تُطْوَى القيم الكاذبة من قوميّة ومال وثروة ومناطق جغرافيّة وطبقيّة عن هذا المجتمع ، إنّ التّقوى الإلهيّة والإحساس بالمسئوليّة والوقوف بوجه الشّهوات والالتزام بالحقّ والصّدق والطّهارة والعدل هي وحدها معيار القيم الإنسانيّة ، ولكن هذه القيم الأصيلة أُهْمِلَتْ في سوق المجتمعات المعاصرة ، وحلّت محلّها القيم الكاذبة .

في نظام القيم الجاهليّة الّذي كان يدور حول محور التّفاخر بالآباء والأموال والأولاد لم ينتج سوى حفنة سرّاق وناهبين ، غير أنّه بتبدّل هذا النّظام وإحياء أصل " إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ " كان من ثمراته أناس أمثال سلمان وأبو ذر

---

[1] تفسير القرطبيّ ج ٩ ص ٦١٦٢ .

[2] صحيح البخاريّ .

وعمار بن ياسر والمقداد ، والمهمّ في ثورات المجتمعات الإنسانيّة هو الثّورة على القيم وإحياء هذا الأصل الإسلاميّ الأصيل .

عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله : "كلّكم بنو آدم ، وآدم خُلِقَ من تراب ، ولينتهينّ قوم يفخرون بآبائهم أو ليكوننّ أهون على الله من الجِعْلان" [1] .

البحث الثّاني : حقيقة التّقوى :

القرآن الكريم جعل أكبرَ امتيازٍ للتّقوى ، وعدّها معيارًا لمعرفة القيم الإنسانيّة ، وفي مكان آخر عدّها خير الزّاد : "وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى" [2] .

وفي موضع آخر عبّر عنها باللّباس : " وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ " [3] .

وعبّر عنها في آيات أخر بأنّها واحدة من أوّل أسس دعوة الأنبياء عليهم السّلام ، ويسمو بها في بعض الآيات إلى أن يعبّر عن الله بأنه أهل التّقوى : " هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ " [4] .

والقرآن يعدّ التّقوى نورًا من الله ، فحيثما ترسّخت التّقوى وُجِدَ العلم والمعرفة : "واتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ" [5] .

ويقرن القرآن التّقوى بالبرّ في بعض آياته : "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى" [6] .

---

[1] صحيح مسلم ، جِعْلان : جمع جُعَل ، حشرة كالخنفساء تكثر في المواضع الرّطبة .

[2] البقرة : ١٩٧ .

[3] الأعراف : ٢٦ .

[4] المدّثّر : ٥٦ .

[5] البقرة : ٢٨٢ .

[6] المائدة : ٢ .

ويقرن العدالة بالتّقوى : "اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى" [1] .

وينبغي أن نرى ما هي حقيقة التّقوى الّتي هي أعظم رأس مال معنويّ للإنسان ، أشارَ القرآنُ الكريم إشاراتٍ تكشف أستارًا عن حقيقة التّقوى ، فيذكر في آيات متعدّدة أنّ القلب مكان للتّقوى :

" أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى " [2] .

ويجعل القرآن التّقوى في مقابل الفجور : "فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا" [3] .

ويعدّ القرآن كل عمل ينبع من روح الإيمان والإخلاص والنّيّة الصّادقة أساسه التّقوى ، كما جاء في وصفه مسجد قبا في المدينة حيث بنى المنافقون في قبالة مسجد ضرار : "لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ" [4] .

وَيُسْتَفَادُ من مجموع هذه الآيات الكريمة أنّ التّقوى هي الإحساس بالمسئوليّة والتّعهّد الّذي يحكم وجود الإنسان ، وذلك نتيجة لرسوخ إيمانه في قلبه حيث يصدّه عن الفجور والذّنب ، ويدعوه إلى العمل الصالح والبرّ ، ويغسل أعمال الإنسان من التّلوّث ، ويجعل فكره ونيّته في خلوص من أيّ شائبة .

وحين نعود إلى الجذر اللّغويّ لهذه الكلمة نصل إلى نفس النّتيجة لأنّ التّقوى مشتقّة من الوقاية ، ومعناها المواظبة والسّعي لحفظ الشّيء ، والمراد في هذه الموارد حفظ النّفس من التّلوّث بشكل عام ، وجعل القوى تتمركز في أمور يكون رضا الله فيها .

---

[1] المائدة : ٨ .

[2] الحجرات : ٣ .

[3] الشّمس : ٨ .

[4] التّوبة : ١٠٨ .

البحث الثّالث : مراحل التّقوى :

للتّقوى ثلاث مراحل :

١- حفظ النّفس من العذاب الخالد عن طريق تحصيل الاعتقادات الصّحيحة .

٢- تجنّب كلّ إثم ، وهو أعمّ من أن يكون تركًا لواجب أو فعلاً لمعصية .

٣- التّجلّد والاصطبار عن كل ما يشغل القلب ويصرفه عن الحقّ ، وهذه تقوى الخواص بل خاص الخاص [١] .

والإمام عليّ عليه السّلام يقارن بين التّقوى والذّنب فيقول : "ألا وإنّ الخطايا خَيْلٌ شُمُس ، حُمِلَ عليها أهلها ، وخلعت لجامها ، فتقحّمت بهم في النّار ، ألا وإنّ التّقوى مطايا ذُلُل ، حُمِلَ عليها أهلها ، وأُعْطُوا أزمّتها ، فأوردتهم الجنّة" [٢] .

وطبقًا لهذا التّشبيه فإنّ التّقوى هي حالة ضبط النّفس والتّسلّط على الشّهوات ، في حين أنّ عدم التّقوى هو الاستسلام للشّهوات وعدم التّسلّط عليها .

عن الإمام عليّ عليه السّلام : "اعلموا عباد الله أنّ التّقوى دار حصن عزيز ، والفجور دار حصن ذليل ، لا يمنع أهله ، ولا يحرز من لجأ إليه ، ألا وبالتّقوى تقطع حمة الخطايا" [٣] .

ويضيف عليه السّلام في مكان آخر : "فاعتصموا بتقوى الله ، فإنّ لها حبلاً وثيقًا عروته ، ومعقلاً منيعًا ذروته" [٤] .

وتتّضح حقيقة التّقوى وروحها من خلال مجموع التّعبيرات السّابقة ، فالتّقوى ثمرة شجرة الإيمان ، ومن أجل الحصول على هذه الثّمرة النّادرة والغالية ينبغي أن تكون قاعدة الإيمان راسخةً ومحكمةً ، وممارسة الطّاعة وتجنّب المعصية والالتفات

---

[١] بحار الأنوار ج ٧٠ ص ١٢٦ .

[٢] نهج البلاغة الخطبة رقم ١٦ .

[٣] المصدر السّابق الخطبة رقم ١٥٧ .

[٤] المصدر السّابق الخطبة رقم ١٩٠ .

إلى المناهج الأخلاقيّة تجعل التّقوى راسخةً في النّفس ، ونتيجتها ظهور نور اليقين والإيمان في نفس الإنسان ، وكلّما إزداد نور التّقوى ازداد نور اليقين ، ولذلك نجد التّقوى في بعض الرّوايات الشّريفة أنّها درجة أعلى من الإيمان وأدنى من اليقين .

عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام : "الإيمان فوق الإسلام بدرجة ، والتّقوى فوق الإيمان بدرجة ، واليقين فوق التّقوى بدرجة ، وما قُسِمَ في النّاس شيء أقلّ من اليقين" [1] .

سورة الحجرات الآيات ١٤ – ١٥ :

قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)

سبب النّزول :

ذكر المفسِّرون شأنًا لنزول الآيتين ، وهو أنّه ورد المدينة جماعة من بني أسد في بعض سنين الجدب والقحط ، وأظهروا الشّهادتين على ألسنتهم أملاً في الحصول على المساعدة من النّبيّ صلّى الله عليه وآله ، وقالوا للرّسول صلّى الله عليه وآله إنّ قبائل العرب ركبت الخيول وحاربتكم إلاّ أنّنا جئناك بأطفالنا ونسائنا دون أن نحاربك ، وأرادوا أن يمنّوا على النّبيّ صلّى الله عليه وآله ، فنزلت الآيتان السّابقتان ، وكشفتا أنّ إسلامهم ظاهريّ ، ولم يتغلغل الإيمان في أعماق قلوبهم ، وإذا كانوا مؤمنين فلا ينبغي عليهم أن يمنّوا على الرّسول صلّى الله عليه وآله بالإيمان ، بل الله يمنّ عليهم أن هداهم للإيمان [2] .

---

[1] الكافي ج ٢ ص ٥١ ح ٢ .

[2] تفسير الميزان ، روح البيان .

ومع وجود شأن النّزول فإنّ هذا لا يمنع من عموميّة مفهوم الآية الكريمة .

تفسير الآيات ١٤ – ١٥ :

الفرق بين الإسلام والإيمان :

كان الكلام في الآية المتقدّمة أنّ معيار القيم الإنسانيّة هو التّقوى ، والتّقوى هي ثمرة لشجرة الإيمان الرّاسخ في القلوب ، وفي الآيتين السّابقتين بيان لحقيقة الإيمان ، إذ تقول الآية الأولى : " قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ " .

وطبقًا للآية الكريمة فإنّ الفرق بين الإسلام والإيمان هو أنّ الإسلام له شكل ظاهريّ قانونيّ ، فمن تشهّد الشهادتين بلسانه فهو في زمرة المسلمين ، وتجري عليه أحكام المسلمين .

وأمّا الإيمان فهو أمر باطنيّ ، ومكانه قلب الإنسان ، لا ما يجري على اللّسان أو ما يبدو ظاهرًا .

والإسلام ربّما كان عن دوافع متعدّدة مختلفة بما فيها الدّوافع المادّيّة والمنافع الشّخصيّة ، وأمّا الإيمان فإنّه ينطلق من دافع معنويّ ، ويأخذ من منبع العلم ، وهو الّذي تظهر ثمرة التّقوى اليانعة على غصن شجرته الباسقة .

وهذا ما أشار إليه الرّسول صلّى الله عليه وآله : "الإسلام علانية ، والإيمان في القلب" [١] .

وعن الإمام الصّادق عليه السّلام : "الإسلام يحقن الدّم ، وتُؤَدَّى به الأمانة ، وَتُسْتَحَلُّ به الفروج ، والثّواب على الإيمان" [٢] .

---

[١] مجمع البيان ج ٩ ص ١٣٨ .

[٢] الكافي ج٢ باب أنّ الإسلام يحقن به الدّم ص ٢٤ ح ١ .

وبعض الرّوايات تحصر مفهوم الإسلام بالإقرار اللّفظيّ ، في حين أنّ الإيمان إقرار باللّسان وعمل بالأركان .

عن أحد المعصومين عليهم السّلام : "الإيمان إقرار وعمل ، والإسلام إقرار بلا عمل" [1] .

عن الإمام الصّادق عليه السّلام : "إنّ الإيمان يشارك الإسلام ، ولا يشاركه الإسلام ، إنّ الإيمان ما وَقَرَ في القلوب ، والإسلام ما عليه المناكح والمواريث وحقن الدّماء" [2] .

والفرق في مفهومي الإسلام والإيمان يظهر إذا اجتمع اللّفظان معًا ، ولكن إذا انفصل أحدهما عن الآخر فمن الممكن أن يُطْلَقَ الإسلام على ما يُطْلَقُ عليه الإيمان ، فاللّفظان قد يُسْتَعْمَلانِ في معنى واحد أحيانًا .

وتضيف الآية محلّ البحث فتقول : " **وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ** شَيْئًا " ، فالله عزّ وجلّ سيوفّيكم ثواب أعمالكم بشكل كامل ، ولا يُنْقِصُ منها شيئًا ، وذلك لأنّ الله غفور رحيم ، وكلمة "يَلِتْكُمْ" مشتقّة من "لَيْت" على وزن "رَيْب" ، ومعناه الإنقاص من الحقّ .

والعبارات الأخيرة إشارات إلى أصل قرآنيّ مسلَّم به ، وهو أنّ شرط قبول الأعمال هو الإيمان ، إذ مضمون الآية أنّه إذا كنتم مؤمنين بالله ورسوله إيمانًا قلبيًّا – وعلامته طاعتكم لله والرّسول – فإنّ أعمالكم مقبولة ، ولا ينقص من أجركم شيء ، ويثيبكم الله عزّ وجلّ ، وببركة هذه الأعمال يغفر ذنوبكم لأنّ الله غفور رحيم .

---

[1] الكافي ج ٢ باب أنّ الإسلام يحقن به الدّم ص ٢٤ ح ٢ .

[2] الكافي ج ٢ باب أنّ الإيمان يشرك الإسلام ح ٣ .

والحصول على هذا الأمر الباطنيّ – أي الإيمان – ليس سهلاً ، فإنّ الآية التّالية تتحدّث عن علامات الإيمان الّتي تميّز المؤمن حقًّا عن المسلم ، والصّادق عن الكاذب ، وأولئك الّذين استجابوا لله وللرّسول رغبةً وشوقًا منهم عن أولئك الّذين استجابوا طمعًا أو للوصول إلى المال والدّنيا ، فتقول : " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ " .

إنّ أوّل علامة للإيمان هي عدم التّردّد في مسير الإسلام ، والعلامة الثّانية هي الجهاد بالأموال ، والعلامة الثّالثة الّتي هي أهمّ من الجميع هي الجهاد بالنّفس .

وهكذا فإنّ الإسلام يستهدف في الإنسان أجلى العلامات وهي ثبات القدم وعدم الشّكّ والتّردّد من جهة ، والإيثار بالمال والنّفس من جهة أخرى ، ويرسخ الإيمان في القلب حينما لا يقصّر الإنسان عن بذل المال والرّوح في سبيل المحبوب ، لذلك فإنّ الآية تختم بالقول مؤكّدةً : " أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ " .

وهذا هو المعيار الّذي حدّده الإسلام لمعرفة المؤمنين حقًّا وتمييزهم عن الكاذبين المدّعين بالإسلام تظاهرًا ، وليس هذا المعيار منحصرًا بفقراء بني أسد ، بل هو معيار يصلح لكلّ زمان لأجل فصل المؤمنين عن المتظاهرين بالإسلام ، ولبيان قيمة أولئك الّذين يمنّون على النّبيّ صلّى الله عليه وآله بِأَنْ أسلموا بحسب الظاهر ، ولكنّهم عند التّطبيق والعمل لا يوجد فيهم أقلّ علامة من الإيمان أو الإسلام .

وفي قبال أولئك رجال لا يدّعون شيئًا ولا يمنّون ، بل يرون أنفسهم مقصِّرين دائمًا ، وفي الوقت ذاته هم في طليعة المضحِّين والمؤثرين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى .

ولو أخذنا معيار القرآن لمعرفة المؤمنين الحقيقيّين وتمييزهم عن المؤمنين بحسب الظّاهر فإنّ المؤمنين الحقيقيّين يكونون قلّةً ضمن هذا العدد الهائل من ملايين المسلمين ، والأكثر يكونون من المؤمنين بحسب الظّاهر .

سورة الحجرات الآيات ١٦ – ١٨ :

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

سبب النّزول :

قال بعض المفسِّرين إنّه بعد نزول ما تقدّم من الآيات السّابقة جاءت طائفة من الأعراب إلى النّبيّ صلّى الله عليه وآله وحلفوا أنّهم صادقون في ادّعائهم بأنّهم مؤمنون ، وأنّ ظاهرهم وباطنهم سواء ، فنزلت الآية الأولى من الآيات محلّ البحث ، وأنذرتهم أن لا يحلفوا ، فالله يعرف باطنهم وظاهرهم ، ولا يخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض [1] .

تفسير الآيات ١٦ – ١٨ :

لا تمنّوا عليّ إسلامكم :

كانت الآيات السّابقة قد بيّنت علامات المؤمنين الصّادقين ، وذكرنا في شأن النّزول أنّ جماعة جاؤوا إلى النّبيّ صلّى الله عليه وآله وقالوا إنّ ادّعاءهم كان حقيقةً ، وإنّ الإيمان مستقرّ في قلوبهم ، والآيات الحاليّة تنذرهم وتبيّن لهم أن لا حاجة إلى الإصرار والقسم ، وأنّ هذا البيان والإنذار هو لجميع الّذين على شاكلة تلك الجماعة ، فمسألة "الكفر والإيمان" إنّما يطّلع عليها الله الخبير بكلّ شيء .

والآيات الكريمة فيها عتاب وملامة ، إذ تقول الآية الأولى من الآيات محلّ البحث : " قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ " .

---

[1] مجمع البيان ، الميزان ، روح البيان ، تفسير القرطبيّ .

ولمزيد التّأكيد تقول الآية أيضًا : " وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " ، فذاته المقدّسة هي علمه بعينه ، وعلمه هو ذاته بعينها ، لذلك فإنّ علمه أزليّ أبديّ .

إنّ ذاته المقدّسة حاضرة في كلّ مكان ، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد ، فمع هذه الحال لا حاجة لادّعائكم ، وهو يعرف الصّادقين من الكاذبين ، ومطّلع على أعماق أنفسهم حتى درجات إيمانهم المتفاوتة ضعفًا وقوّةً ، وقد تنطلي عليهم أنفسهم إلاّ أنّه يعرفها بوضوح ، فلماذا تصرّون على أن تعلّموا الله بدينكم ؟!

ثم يعود القرآن لكلمات الأعراب من أهل البادية الّذين يمنّون على النّبيّ صلّى الله عليه وآله بأنّهم أسلموا وأنّهم أذعنوا لدينه في الوقت الّذي حاربته القبائل الأخرى ، فيقول القرآن جوابًا على كلماتهم : " يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ " .

لفظ " المِنَّة " مشتقّ من مادّة " المَنّ " ، ومعناه الوزن الخاص الّذي يوزن به ، ثمّ استعمل هذا اللّفظ على كل نعمة غالية وثمينة ، والمنّة على نوعين : إذا كان فيها جانب عمليّ – كعطاء النّعمة والهبة – فهي ممدوحة ، وَمِنَنِ الله من هذا القبيل ، وإذا كان فيها جانب لفظيّ – كَمَنِّ كثير من النّاس بالقول بعد العمل – فهي قبيحة وغير محبوبة .

وصدر الآية يقول : " يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا " ، وهذا تأكيد آخر على أنّهم غير صادقين في إيمانهم ، وفي ذيل الآية يأتي التّعبير قائلاً : " بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ " .

وهذه مسألة مهمّة أن يتصوّر قاصرو التّفكير غالبًا أنّهم بقبول الإيمان وأداء العبادات والطّاعات يقدّمون خدمة لساحة قدس الله تعالى أو للنّبيّ صلّى الله عليه وآله وأوصيائه عليهم السّلام ، ولذلك فهم ينتظرون الثّواب والأجر ، في حين أنّه

لو أشرق نور الإيمان في قلب أحد ، ونال هذا التّوفيق بأن كان في زمرة المؤمنين ، فقد شمله لطف عظيم من الله عزّ وجلّ .

إنّ الإيمـــان قبل كلّ شيء يمنح الإنسان إدراكًا جديدًا عن عـــالم الوجـــود ، ويكشف عنه حجب الأنانيّة والغرور ، ويوسّع عليه أفق نظرته ، ويجسّد له عظمة خلقه في نظره ، إنّـــه يلقي عليه النّور والضياء ، ويحيي في نفسه القيم الإنسانيّة ، ويربّيه وينمّي استعداداته العالية فيـــه ، ويمنحه العلم والقوّة والـــشّهامة والإيثـــار والتّضحية والعفو والتّسامح والإخلاص ، ويجعل منه إنسانًا قويًّا ذا عطاء بعـــد أن كان موجودًا ضعيفًا ، إنّه يأخذ بيده ويصعد به في مدارج الكمال إلى قمّة الفخر ، وهذه هي النّعمة التي أنعمها الله على الإنسان لا ما يمنّه الإنسان على النّبيّ صلّى الله عليه وآله .

وكلّ عبادة وطاعة هي خطوة نحو الكمال ، إذ تمنح القلب صفاءً ، وتـــسيطر على الشّهوات ، وتقوّي فيـــه روح الإخلاص ، وتمنح المجتمع الإسلاميّ الوحـــدة والقوّة والعظمة فكأنّه نسيج واحد .

ومن هنا كان على الإنسان أن يؤدّي شكر نعمة الله صـــباحًا ومـــساءً ، وأن يهوي إلى السّجود بعد كلّ صلاة وعبادة ، وأن يشكر الله على جميع هذه الأمور .

وإذا كانت نظرة الإنسان – في هذا المستوى – من الإيمان والطّاعة فإنّه لا يرى نفسه متفضِّلاً ، بل يجد نفسه مدينًا لله تعالى ولنبيّه صلّى الله عليه وآلـــه وغريـــق إحسانه ، ويؤدّي عبادته بلهفة ، ويسعى في سبيل طاعته ، وإذا ما أثابه الله أجـــرًا فهو تفضّل آخر من الله تعالى مع أنّ أداء الأعمال الصّالحة يكون لنفع الإنسان .

إنّ هداية الله عزّ وجلّ لطف ، ودعوة النّبيّ صلّى الله عليه وآله لطف آخـــر ، والتّوفيق للطّاعة مضاعف ، والثّواب لطف فوق لطف .

وفي آخر آية من الآيات محلّ البحث تأكيد آخر على ما ورد في الآية السّابقة إذ تقول : " إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ " ، فلا تصرّوا على

أنكم مؤمنون حقًّا ، ولا حاجة للقَسَمِ ، فهو حاضر في أعماق قلوبكم ، وهو عليم بما يجري في غيب السّماوات والأرض ، فكيف لا يعلم ما في قلوبكم وما تنطوي عليه صدوركم ؟!

انتهى

تلخيص سورة الحُجُرَات

يوم الخميس

١ رمضان المبارك ١٤٣٩ هـ

١٧ / ٥ / ٢٠١٨ م

الشّيخ محمّد أشكناني

الفهرس

سورة الحُجُرَات

محتوى السّورة ١
تقسيم السّورة ١
سبب تسمية السّورة ٢
فضل السّورة ٢
الآيات ١ – ٥ . . . . . ٢
سبب النّزول ٣
التّفسير ٥
آداب الحضور عند النبي صلى الله عليه وآله ٥
بحوث ١٠
١– الأدب أغلى القيم ١٠
٢– رفع الصّوت عند قبر النّبيّ صلّى الله عليه وآله ١٣
٣– الانضباط الإسلاميّ ١٤
الآيات ٦ – ٨ . . . . . ١٧
سبب النّزول ١٧
التّفسير ١٩
لا تكترث بأخبار الفاسقين ١٩
استفادة من الآيات ٢٠
المراد من الفُسُوق ٢١
ملاحظات ٢٣
١– هداية الله وحرّيّة الإرادة ٢٣

٢- القيادة والطاعة ٢٣
٣- الإيمان نوع من الحبّ لا إدراك العقل فقط ٢٤
الآيات ٩ - ١٠ . . . . . ٢٤
سبب النّزول ٢٤
التّفسير ٢٥
المؤمنون إخوة ٢٥
بحوث ٢٧
١- شروط قتال أهل البغي ٢٧
٢- أهمّيّة الأخوّة الإسلاميّة ٢٩
الآيات ١١ - ١٢ . . . . . ٣١
سبب النّزول ٣١
التّفسير ٣٢
حرمة الاستهزاء وسوء الظّنّ والغيبة والتّجسّس والألقاب السّيّئة ٣٢
بحوث ٣٧
١- الأمن الاجتماعيّ الكامل ٣٧
٢- لا تجسّسوا ٣٩
٣- الغيبة من أعظم الذّنوب ٤٠
٤- مفهوم الغيبة ٤٢
٥- علاج الغيبة والتّوبة منها ٤٢
٦- موارد الاستثناء من الغيبة ٤٣
الآية ١٣ . . . . . ٤٤
التفسير ٤٤
التّقوى أغلى القيم الإنسانيّة ٤٤

بحوث ٤٥
١- القيم الحقّة والقيم الباطلة ٤٥
٢- حقيقة التّقوى ٤٩
٣- مراحل التّقوى ٥١
الآيات ١٤ - ١٥ . . . . . ٥٢
سبب النّزول ٥٢
التّفسير ٥٣
الفرق بين الإسلام والإيمان ٥٣
الآيات ١٦ - ١٨ . . . . . ٥٦
سبب النّزول ٥٦
التّفسير ٥٦
لا تمنّوا عليّ إسلامكم ٥٦